البندقية لي... والقلم لك

رواية

سليم عوض عيشان «علاونة»

«غزة – فلسطين»

أبريل ٢٠١٦م

البندقية لي... والقلم لك
المؤلف: سليم عوض عيشان «علاونة»

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : يونيو 2017
رقم الإيداع : 2017/14285
الترقيم الدولي : 978-977-769-185-7

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف
– الدور الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : 23963002(02)

الإهداء:

إلى..
كل الرجال الذين يعشقون الشمس
والذين يقبضون على البندقية
والذين يحملون القلم

إهداء خاص:

إلى البطل الحقيقي للنص الروائي..
«أبو فلسطين»

الكاتب

مقدمة:

هي رواية شخص في أمة..
وأمة في شخص.

تحية لكل الأيادي الطاهرة
التي تحمل البندقية.
وتحية لكل الأيادي الراقية
التي تحمل القلم.

الكاتب

البداية.. أم النهاية؟

.. هيا انهض من فراشك أيها الرجل العجوز.. فالحكاية لم تنته بعد.. فما زلنا في البداية.. ما زالت الحكاية في البداية.. فهيا انهض من فراشك وكفاك «تمارضا»! كفاك «تناوماً» وكفاك «تماوتاً»!.. فما زلنا في بداية المشوار.. وما زال المشوار طويلاً.. بل طويلاً جداً.

أتُراك قد مللت الكتابة؟ ومللت الحرف والكلم؟ ومللت حمل القلم؟

هل تظن بأن حمل القلم قد أصبح عبئاً ثقيلاً عليك؟ هل تراه قد أصبح ثقيلاً عليك إلى مثل هذه الدرجة؟ أم تراك قد «جبنت» أخيراً عن حمل القلم والكتابة؟!

إذا كان هذا هو الحال بالنسبة لك.. فما بال الأمر بالنسبة لي.. وأنا الذي كنت – وما زلت – أحمل البندقية.. الرشاش والمدفع طوال الوقت؟ فهل حرفك وكلمك وقلمك أصبح من الثقل الذي يبز ثقل بندقيتي.. رشاشي ومدفعي؟

انهض أيها الرجل العجوز من رقدتك هذه وكفاك كسلاً وتخاذلاً..
فما زلنا نحتاجك.. نحتاج لقلمك.. نحتاج لحرفك..
أم تُراك قد جبنت أخيرا.. عن حمل القلم وعن الكتابة؟
انهض أيها الرجل العجوز من رقدتك هذه...
وكفاك كسلا وتخاذلاً.. فما زلنا نحتاج لقلمك.. نحتاج للقلم تماما كما نحتاج للبندقية.. للمدفع..

ما لي أراك تشيح بوجهك عني إلى الناحية الأخرى.. إلى البعيد؟! أتراك تنكرني؟ تنكر معرفتي؟! أم تراك تتجاهلني؟ أم ماذا بالله عليك؟ هل أصابك الصمم؟ هل أصابك العجز؟ حتى بت هكذا لا تسمعني ولا تراني؟

ولكني أرى جيداً حركة أذنيك وهي تتابع حروفي وهمساتي وكلماتي... وأرى حدقات عينيك وهي تتابعني وتدور في محاجرها في كل اتجاه؛ تتابع حركاتي وسكناتي.. وهذا يعني الكثير بالنسبة لي أيها العجوز.. على الأقل؛ هذا يعني أنك ما زلت حياً.. ما زلت تسمع.. ما زلت ترى..

القضية لم تمت.. والمشوار لم ينته.. فالقضية ما زالت حية.. والمشوار ما زال طويلاً طويلا.. وبدورك؛ فأنت ما زلت حياً.. فإن كنت تظن أنك «القضية».. وأن «القضية» هي أنت.. وإن كنت تعتقد أنك قد مت لأن القضية قد ماتت وانتهت.. فأنت واهم.. مخطئ في هذا

الأمر يا هذا.. فأنت ما زلت حيّاً.. و«القضية» ما زالت حية.

لماذا تعبس هكذا وكأنك تستنكر حديثي وقولي هذا؟!

عليك أن تعود لرشدك أيها العجوز.. وعليك أن تعود إلى الحياة.. فالقضية ما زالت تعيش الحياة.. فلا تمت يا هذا حتى لا تموت «القضية».. ولن تموت «القضية» حتى لا تموت أنت.. فهيا انهض من فراشك وكفاك كسلاً وخمولاً ! فأنا لم أتعود أن أراك كسولاً وخاملاً في يوم من الأيام.. فدأبك العطاء العظيم من مداد قلمك.. كدأبي في العطاء العظيم من مداد بندقيتي ومدفعي.. فـ«البندقية لي.. والقلم لك».. «المدفع لي.. والقلم لك»..

لقد كانت «شراكة» غير مكتوبة بيننا.. شراكة السير في درب الكفاح.. درب الكفاح الطويل.. واتفقنا -دون أن نتفق- أن نكون رفاق السلاح.. ولا تعجب يا هذا.. فكلانا كان يحمل السلاح.. فأنا كنت -وما زلت- أحمل السلاح الحربي.. أحمل البندقية.. المدفع.. وأنت كنت -وما زلت- تحمل السلاح الكلمي.. وكلاهما سلاح فتاك لا غنىً لأحدهما عن الآخر.. فأنا أعبئ بندقيتي ومدفعي بحرفك وكلمك.. وأنت تعبئ قلمك برصاص بندقيتي ومدفعي.. فلا غنى لهذا عن ذاك.. ولا غنى لذاك عن هذا.. فـ«البندقية لي.. والقلم لك».. «المدفع لي.. والقلم لك».

فهيا انهض أيها الرجل العجوز كي تعبئ مدفعي وبندقيتي بحروفك

وكلماتك.. ولكي أعبئ قلمك برصاص بندقيتي ومدفعي.. لكي نستأنف المسيرة معا في المشوار الطويل.. في الدرب الطويل.

ما لي أراك تتصنع «الشخير» كأنك تريد أن توهمني بأنك تغط في سبات نوم عميق؟! ! أو لعلك تريد أن توهمني بأنه «الموت العميق«؟!

فأنا أعرف جيداً.. أنت لست بنائم.. ولست بميت.. وأعرف جيداً أنك تتابع حركاتي وسكناتي.. وتتابع حروفي وكلماتي.. فلا تتصنع النوم أيها العجوز.. ولا تتصنع الموت.

لا أريد أن توهمني بأنك مللت السير... وكللت عن المتابعة.. وأن المشوار قد أرهقك.. ولم تعد قادرًا على مواصلة المشوار.. ولم تعد قادرًا حتى على حمل القلم؟! فها أنت تراني ماثلاً أمامك.. وأنا ما زلت أحمل بندقيتي.. أحمل مدفعي.. ولم يصبني الملل.. ولم يصبني الكلل.. ولم يصبني التعب والوهن..

حقاً.. بأن الصدأ قارب أن يصيب بندقيتي.. أن يصيب مدفعي.. وقد كادت أن تصبح بندقيتي كومة من الحديد الصدئ.. لا لشيء إلا لأنها لم تعد تتزود برصاص كلماتك وحروفك.. فبندقيتي ما زالت تحتاج لحروفك.. لكلماتك.. لقلمك.. كي تستأنف العمل.. ولكي تكمل المشوار الطويل..

فهيا انهض أيها العجوز من رقدتك هذه.. وكفاك كسلاً وتكاسلاً

يا هذا.. وهيا قم بتعبئة قلمك برصاص بندقيتي.. لكي تبدأ الكتابة من جديد.. لكي تبدأ تعبئة بندقيتي بالرصاص من جديد.. ولكي نستأنف معا المعركة من جديد.. فـ«البندقية لي.. والقلم لك»..

إنك لم تمت في تلك الأيام النكدة السوداء التي تلت أيام حرب «النكسة».. بل قل ساعات «النكسة».. حقاً بأنك أصبت يومها بالانهيار المميت لهول الصدمة.. وقد كنت في قرارة نفسك قد وطدت العزم على العودة إلى مدينتك الجميلة «حيفا».. تماماً كما هو الأمر بالنسبة لي بالعودة إلى مدينتي الحبيبة.. «يافا» ولكن الرياح لم تأتِ بما يشتهي السفن.. فكانت الهزيمة النكراء التي أصابت جيوش بني يعرب.. من قحطان وغطفان وغسان وذبيان.. حقاً بأنك أصبت بالانتكاسة النفسية الحادة.. لشدة وقع «النكسة» التي حدثت وهولها.. ولكنك قمت من جديد تلملم أشلاء نفسك المنهارة الممزقة.. وتضميد جراح قلبك وجراح قلمك.. لكي تعود للحياة من جديد.. وقد تجاوزت مرحلة «النكسة» وبدأت بالاستعداد لما بعد تلك المرحلة السوداء.

لم تكن يومها وحدك من أصيب بالانتكاسة.. فلقد أصيب كلانا بها.. أنا وأنت.. تماماً كما أصيبت بندقيتي بها.. كما كان هذا هو الحال بالنسبة لقلمك..

بدوري.. فلقد كنت جندياً محارباً أحمل بندقيتي ومدفعي وأخوض

تلك «الحرب المهزلة» التي لم أكن أتوقع أن تكون الهزيمة النكراء هي حليفي فيها.. وبدورك.. فقد كنت تحمل القلم الذي يبز بندقيتي قوة وتأثيراً.. لقد أصيبت بندقيتي بالانتكاسة.. تماماً كما هو الحال بالنسبة لقلمك.. ولكننا معا تجاوزنا محنة «الانتكاسة».. وبدأنا معا في استئناف مشوار الكفاح من جديد..

بدوري.. لم أكن في يوم من الأيام رجل حرف أو كلم.. ولم أكن رجل قلم وورقة.. ليس هذا لأنني أعتبر من يحمل هذا وذاك جباناً.. بل لأنني كنت وبطبعي أميل لحمل البندقية.. لحمل المدفع.. وعدم الركون إلى القلم؛ والدعة إلى الحرف والكلم..

.. أتراك نسيت ذلك اليوم الذي قمت فيه بوداعي.. فأهديتني قلما؛ وأهديتك رصاصة؟! فأعدت لي الرصاصة لأنك لا تعرف كيف تمسك بها.. وأعدت لك بدوري القلم لأني لا أعرف الكتابة به.. » فالبندقية لي.. والقلم لك».. «البندقية لي.. والقلم لك».. واكتفينا بتحية وسلام وأمنية.. وثمة ابتسامات باهتة على محيانا.. وثمة دموع حائرة تترقرق في عيوننا.. وثمة أفكار مضطربة وتساؤلات حول مستقبل قادم مجهول لكلينا..

حينها.. كنت تعتقد في قرارة نفسك بأنك تودعني «الوداع الأخير».. وتحس في قرارة نفسك بأننا لن نلتقي ثانية بعد ذلك اليوم.. وأنت تراني أحمل روحي على راحتي.. وأحمل باليد الأخرى

بندقيتي.. مدفعي.. وأنطلق نحو المجهول.. وأندفع نحو حتفي..

ما لي أراك ترف بعينيك بحركات سريعة هكذا؟! ما لي أراك تتململ في رقدتك وتتقلب ذات اليمين وذات الشمال! هذا يوحي إليّ بأنك قد تذكرت تلك الأمور وتلك الأحداث بشكل جيد.. وأنك تستعيد شريط الذكريات من جديد..

فهيا انهض أيها الرجل العجوز الكسول.. وكفاك رقاداً وتناوماً.. فما زال في العمر بقية بالنسبة لك.. وبالنسبة لي..

فما زالت البندقية تنتظرني.. وما زال القلم ينتظرك.. لكي نستأنف المسيرة من جديد.. هيا أيها العجوز.. هيا.. انهض..

أنا أعرف جيداً بأنك تجيد التمثيل وبشكل متقن.. وأنك كنت دائماً رجل المواقف المفاجئة والغريبة.

.. فها أنت الآن تتظاهر بأن ميت.. أو شبه ميت.. وأنت في الحقيقة لست كذلك..

وها أنت تتظاهر بأنك تعيش في غيبوبة طويلة عميقة.. والحقيقة أنك لست كذلك..

هذا وذاك يشهدان وبشكل جيد بأنك تجيد التمثيل وتحاول أن تقنع كل من حولك بما تفعله.

حقاً فإن الجميع من حولك قد انخدعوا بما تفعله الآن.. وقد انطلت عليهم الحيلة.. واقتنعوا بأنك ميت؛ أو شبه ميت.. أو على

الأقل بأنك تعاني غيبوبة طويلة عميقة.

لقد اقتنع الجميع بالفعل بذلك ما عداي.. فإنك لم تستطع أن تخدعني كما فعلت مع الآخرين.. ولن تفعل ذلك معي بالذات.. لأني أعرفك بشكل جيد.. أحسك.. أشعر بك كأني أعيشك.

فأنا ما زلت أذكر تلك الحركة الدراماتيكية التي قمت بها عندما كنت تودعني يومها.. وكأنه الوداع الأخير.. ولكني فوجئت بك -والجميع كذلك- وأنت تجلس في نفس الحافلة التي كنت أستقلها بدوري.. والتي كانت في طريقها لمغادرة أرض الوطن إلى ما وراء شرق النهر.. بعد تلك (النكسة) التي ألمت بنا جميعاً.

وأنا أعرف وبشكل جيد بأنك ما زلت تذكر تلك الأمور التي تناهت لمسامعك وناظريك ومسامع الآخرين بأننا نحن الشباب قد قمنا بالانضمام لقوات (الفدائيين) التي بدأت بالتشكل في الجانب الآخر من النهر.. في الجانبالشرقي من نهر الأردن.. وأننا كنا قد بدأنا في تكوين الفرق والمجموعات الفدائية استعداداً لخوض المعركة الحقيقية الوشيكة من جديد ضد العدو المحتل.. وأعرف بأنك قد شاهدت بطريقة أو بأخرى بأنني قد قمت بالانضمام إلى قوات الثورة تلك.. إلى مجموعات الفدائيين..

أعرف بأنك تذكر تلك الأنباء التي تناهت لمسامعك ولمسامع الجميع بأن الشباب قد انضموا لقوات «الفدائيين» في الجانب الآخر

من النهر.. في الجانب الشرقي منه.. وأنهم قد بدأوا بتكوين الفرق والمجموعات الفدائية استعداداً لخوض المعركة الحقيقية المقبلة مع العدو من جديد.. وأعرف بأنك قد علمت بطريقة أو بأخرى بأنني قد قمت بالانضمام إلى قوات الثورة تلك وإلى مجموعات الفدائيين.. ولكنك لم تفعل ذلك.. وآثرت أن تظل رفيق القلم..

ما لي أراك تتململ هكذا من جديد.. وكأنك تريد أن تنهض من رقدتك؟! أو كأنك تريد أن تقول لي شيئاً؟ حسنا.. لعلي أعرف ما تريد أن تقوله لي.. وما تريد أن تذكرني به؟

حقاً أننا كنا ملتحقين بالثورة ليس طمعاً في راتب ضخم نتقاضاه.. أو في رتبة عسكرية أو نيشان نحصل عليه ونعلقه فوق صدورنا..

فأنت تعلم جيداً بأننا لم نكن نتقاضى أي راتب بالمطلق.. سوى بعض من المواد الغذائية الضرورية واللازمة لاستمرارية الحياة.. تلك المواد الغذائية الضرورية التي لا تكاد تكفينا كأفراد إلا باللأي الشديد.. وأنت تعلم بأن رجال الثورة لا يتمتعون بأي رتبة عسكرية ولا يطمحون بأي نيشان أو رتبة.. فالكل كان بمثابة فرد فحسب.. فلقد كان هدفنا الأسمى هو الوطن.. وتحرير الوطن.

كانت رسالتنا هي احتضان البندقية.. الالتصاق بالبندقية والانصهار بها.. حتى بتنا والبندقية جسدًا واحدًا لا ينفصل ولا ينفصم.

بدورك.. فلقد آثرت أن تلتحق برجال الثورة؛ ليس كمقاتل يحمل السلاح.. ولم تفكر في تجربة حمل البندقية.. واكتفيت بحمل القلم.. المراقبة والمتابعة فحسب.

لن أنكر أنك كنت تهبني نصيبك اليومي المتواضع من السجائر وعن طيب خاطر.. ذلك لأنك كنت عازفاً عن التدخين.. بل وأنك كنت تمقت ذلك.. بل وتمقت من يقومون بالتدخين.. وكان كل ما تطلبه مني؛ هو أن أبتعد عنك بما فيه الكفاية أثناء قيامي بالتدخين.. فكنت أمتثل لأوامرك وأنصاع لرغبتك عن طيب خاطر.. ذلك لأنك كنت صديقي الوفي الأثير.. ولأنك كنت تهبني دوماً حصتك اليومية من السجائر.

بدورك؛ فلقد كنت تقوم بمراقبتي ومراقبة جميع الرفاق من رجال الثورة (الفدائيين) أثناء التدريبات اليومية الشاقة بصمت عجيب وغريب.. وتقوم بتدوين بعض الملاحظات على أوراقك الشخصية الخاصة التي كنت تحتفظ بها والقلم دوماً.. وتودعها كل ما يختلج في صدرك وقلبك من مشاعر وخواطر وأفكار.

كنت أحس وكأنك كنت تراقبنا بعين الشك والريبة فيما كنا نقوم به من نشاطات وتدريبات عسكرية متنوعة.. وكأنها أعمال صبيانية -عبثية- لا طائل من ورائها ولا فائدة ترجي منها؟! ولكنك لم تكن تبدي ذلك صراحة.

ما لي أراك تفتح عينيك ببطء شديد، وتنظر نحوي بنظرات غريبة، وشبح ابتسامة تغطي محياك؟! يبدو أنك قد استعدت ذكريات تلك الأيام البعيدة.. القريبة في مخيلتك.

.. ففي منطقة (الكرامة).. على الضفة الشرقية من نهر الأردن، الواقعة على بعد خمسة كيلومترات من جسر الملك حسين (جسر اللنبي) كانت إقامتنا.. وحياتانا الجديدة.. واستعداداتنا..

.. منذ أن وصلنا إلى (الكرامة) بعد مغادرة أرض الوطن بعد تلك الهزيمة النكراء التي أصابتنا وأصابت الدول العربية المشاركة في الحرب.. وقيام العدو الصهيوني باحتلال مساحات شاسعة من أراضي تلك الدول المحيطة به؛ علاوة على اكتمال احتلاله لبقية فلسطين بالكامل.. بعد وقوع قطاع غزة والضفة الغربية بما فيها مدينة القدس بيد العدو المحتل.. فما إن وصلنا إلى هناك -وأنت برفقتنا- إلى (الكرامة).. حتى بدأنا بمحاولة إزالة ومسح آثار العدوان.. ومخلفات تلك الهزيمة النكراء التي ألمت بنا.

فقد كنا نقوم بالتدريبات اليومية الشاقة بكل جرأة وتحد.. وكل قوة وإصرار وعزيمة.. وكأننا كنا نحاول أن نثبت للجميع ولأنفسنا أننا ما زلنا أقوياء رغم شبح الهزيمة النكراء التي ألمت بنا.. كنا نعد العدة ونستعد لخوض معركة أخرى قادمة فاصلة نعيد فيها لأنفسنا وللعرب (الكرامة) التي أهدرت و(العزة) التي تبددت.

كان الحدس في مكانه.. وكان الظن في محله.. فما هي سوى عدة شهور على حدوث (النكسة) والرحيل إلى شرق نهر الأردن والإقامة في (الكرامة)؛ حتى كان العدو يفتعل الأحداث ويحاول إيجاد الأسباب الواهية للقيام بعمليته العسكرية ضد رجال المقاومة ومواقعهم شرقي النهر.. فالذرائع والحجج التي ساقها العدو تمهيداً للقيام بالعدوان الشامل ضد الفصائل الفلسطينية من رجال المقاومة.. كانت ترتكز على حجة أن رجال المقاومة الفلسطينية ينطلقون من شرقي النهر نحو المغتصَبات والمستوطنات الصهيونية والأرض المحتلة، لمهاجمة أهداف العدو المختلفة داخل فلسطين المحتلة.

الذريعة الجديدة الأخيرة التي تذرع بها العدو للتمهيد من أجل شن عدوانه الواسع على رجال المقاومة ومواقعهم أتت تعقيباً من كبار المسئولين في حكومة العدو؛ ابتداءً من رئيس الحكومة مروراً بوزير الدفاع ورئيس الأركان ورئيس المخابرات.. وذلك إثر حادث انفجار لغم زرعه رجال المقاومة تحت حافلة نقل ركاب كبيرة جنوبي النقب.. وبذلك تكون تهديدات العدو قد بلغت مداها وبات أمر الاعتداء قد أصبح وشكياً جداً.

الكرامة

.. ولا بد أنك لا تذكر جيدا ما حدث صبيحة ذلك اليوم..

ففي صبيحة يوم الخميس الواقع في 1968/ 3/ 21م؛ كان العدو يدفع بقوات ضخمة نحو الجانب الشرقي من نهر الأردن، في المنطقة التي امتدت من جسر الأمير محمد (جسر دامية) شمالاً، وحتى جنوبي البحر الميت.. وكان التركيز الأهم والهدف الأول من تلك الحملة العسكرية هو القضاء على مواقع الفدائيين.. (رجال المقاومة الفلسطينية) في مخيم (الكرامة) ومنطقة (الكريمة) والمناطق المحاذية لهما.

كانت الاستعدادات من جانبنا -كرجال مقاومة- تجري على قدم وساق وعلى أشدها لملاقاة العدو، وإيقاع الهزيمة النكراء به وبقواته، انتقاماً لكرامتنا التي أهدرت في حرب الأيام الستة (النكسة).. وقد قررنا استعادة (الكرامة) المفقودة من جديد على أرض (الكرامة).

فلقد كنا نشاهد الحشودات الضخمة للعدو على طول الحدود..

وعلى طول الضفة الغربية لنهر الأردن، وذلك خلال الأيام القليلة التي سبقت العدوان الجديد وحدوث المعركة بيننا وبين العدو.

العدو من جانبه؛ كان قد كال التهم جزافاً للأردن؛ فقد ادعى رئيس حكومة العدو، أمام الكنيست، أن الأردن لا يفعل شيئاً لوضع حد لأعمال رجال المقاومة الفلسطينية (الفدائيين) التي كانت تنطلق من أراضيه.. وأردف بأن حكومة العدو ستضطر لحماية أمن كيانه!

قوات العدو الضخمة التي حشدت على طول الحدود كانت تتكون من أربعة ألوية؛ (لواءان موزعين، ولواء مظليين«35«، ولواء المشاة «85«)، تدعمها وحدات من المدفعية الميدانية (خمس كتائب مدفعية عيار 105 مم وعيار 155مم)، ووحدات هندسية عسكرية؛ علاوة على تغطية جوية بأربعة أسراب طائرات نفاثة وعدد من (الحوامات) اللازمة لنقل كتيبتي مشاة مع معداتهما؛ بما يبلغ مجموعه خمسة عشر ألف جندي مدججين بالسلاح والعتاد الحربي الضخم..

من جانبنا -كرجال مقاومة- فقد قام القادة الميدانيون بمراقبة ورصد حشود القوات المعادية الضخمة.. وقامت بتدارس التدابير الواجب اتخاذها إزاء هذا الموقف.. ما بين مجابهة العدو أو الانسحاب من المواقع المستهدفة من قبل العدو كي تأتي ضربته في

(الفراغ)، وذلك وفقاً لمبادئ قتال الحرب الشعبية.

.. وفي النهاية؛ قررت القيادة، وبالإجماع، تبني خطة «الصمود الواعي»، وذلك بهدف رفع معنويات الجماهير الفلسطينية والعربية بعد نكسة حزيران 1967م التي لم تكن بعيدة بعد.. وبهدف تحطيم معنويات العدو، وإنزال أكبر الخسائر في صفوفه.. ومن أجل زيادة التقارب والثقة بين رجال قوات الثورة الفلسطينية (الفدائيين) ورجال الجيش الأردني.. ومن أجل بث روح الثورة داخل صفوف الشعب الفلسطيني بشكل خاص، والشعوب العربية بشكل عام.. ومن أجل الاختبار الحقيقي لثقة المقاتلين الفلسطينيين بأنفسهم في ميدان معارك المواجهة المباشرة من العدو.

لقد رأت القيادة أن تقوم بتقسيم قوات المقاومة إلى ثلاثة أقسام كتكتيك حربي ناجع..

القسم الأول يتم توزيعه على عدة مراكز داخل (الكرامة) نفسها ومن حولها.

أما القسم الثاني فيتم توزيعه على شكل (كمائن) على امتداد الطرق التي كان من المحتمل أن تسلكها قوات العدو.

أما القسم الثالث؛ فقد تم توزيعه على المرتفعات المشرفة على المنطقة، كدعم واحتياطي.

هذا من جانب رجال المقاومة وقوات الثورة الفلسطينية؛ أما

بالنسبة للقيادة الأردنية؛ فقد اتخذت استعداداتها القصوى من أجل التصدي للعدوان الوشيك وقوعه؛ فوضعت القوات في حالة استنفار قوي وتعبئة شاملة؛ وذلك انتظاراً للتوقعات والتطورات المحتملة.

.. أظنك ما زلت تذكر كل تلك الأمور بشكل جيد.. فها أنا أرى علامات الجدية والعبوس والتجهم ترتسم على محياك.. وها أنا أرى عينيك تدوران في محجريهما بسرعة.. وها أنا أرى شبح ابتسامة باهتة ترتسم على محياك؛ وأعتقد جازماً أنك قد تذكرت ذلك الموقف الطريف الذي حدث بيننا يومها رغم قتامة الأوضاع العصيبة التي كانت تسود؛ ورغم دق طبول الحرب والاستعداد لها.. ولا أظنك قد ابتسمت الآن إلا لأنك تذكرت ذلك الموقف الذي حدث يومها.

ففي خضم استعداداتنا – كرجال مقاومة – والتهيؤ لمقارعة العدو المعتدي.. لمحت شبح شخص عن بعد يحاول أن يندس بين صفوف رجال المقاومة.. (الفدائيين)! رحت أدقق النظر فيه وبشكل جيد؛ وفي اللحظات التالية هيئ لي بأنني عرفت ذلك الشبح، الذي كان يرتدي الزيّ الخاص برجال المقاومة الفلسطينية.. ولكنه لم يكن يحمل السلاح.. أو أي وسيلة قتالية!

عندما رحت أدقق النظر إليه من جديد.. رأيته يحمل شيئاً في يده

بدلاً من السلاح! لم يكن ما يحمله سوى قلم! نعم؛ قلم.. يشهره عالياً في وجه العدو المتغطرس القادم لمباغتتنا.. وفي الحال.. وبعد أن دققت النظر إليه بشكل أكبر وأكبر.. عرفت أنه أنت؟! نعم؛ أنت.

وقفت في حيرة من أمري للحظات حسبتها الدهر بأكمله.. ولم أعد أدري ما يجب عليّ أن أقوم به.. أن أبتسم؟! أضحك؟! أحزن؟! أتألم؟! أبكي؟! أفرح؟! لقد كان مزيجاً من الخواطر المتباينة والمشاعر المتلاطمة المتأججة.

بدوري.. فقد نهضت من مكاني.. ورحت أندفع بقوة نحوك بسرعة.. لا لكي أتأكد من صدق حدسي وظني وعيني من أن ذاك الشبح هو أنت .. فلقد كنت قد تأكدت من ذلك بما لا يقبل مجالاً للشك.. ولكني كنت أندفع نحوك كي أستطلع سر الأمر.. وأعرف كنه الموقف!

لحظتها، وبدورك، فقد تصنعت عدم معرفتك بي.. لم تولني أي اهتمام وكأنه لم يسبق لك أن التقيت بي من قبل! وكأنك لم تعرفني يوماً!

اقتربت منك أكثر.. قمت بتأدية التحية العسكرية لك بقوة وجدية، بدورك، فقد أشحت بوجهك عني إلى البعيد.. رحت تقبض على القلم بقوة وعصبية.

مددت يدي إليك كي أصافحك.. تجاهلتني من جديد! تماماً كما تجاهلت يدي الممدودة إليك للتحية والسلام.. تابعت سيرك نحو المقدمة.. نحو الخطوط الأمامية لجبهة القتال والمنازلة والمعركة.

حاولت أن أثنيك عن عزمك في مواصلة سيرك نحو الخطوط الأمامية.. حاولت أن أقطع عليك طريق السير والمتابعة.. فوجئت بأنك تملك جرأة غريبة وإصرارًا عجيبًا وأنت تزيحني عن طريقك بقبضتك! لم تكن قوتك كافية لأن تلقيني أرضا بعيداً عن طريقك.. ولكنها كانت كافية تماماً لأن تلقي بك أنت أرضا!

لقد وقعتَ بدورك لحظتها على الأرض.. هذا ما شاهدته وشاهده الجميع.. فلم تكن بك قوة بدنية تكفي لمقارعة أحد رجال المقاومة الأشداء.. ولكني أشهد.. أشهد بأنك، رغم تدحرجك على الأرض، كنت تحمل بيدك شيئاً وترفعه إلى الأعلى بقوة وإصرار وثبات.. عالياً خفاقاً.. ولم يكن ذلك الشيء.. سوى القلم.. نعم.. قلمك.

هل تراك ما زلت تذكر ذلك المشهد بالفعل؟! لا بد أنك ما زلت تذكره وبشكل جيد.. ولا بد أنك ما زلت تذكر أنني قلت لك يومها: «البندقية لي.. والقلم لك» .. «المدفع لي.. والقلم لك».

ولا بد أنك ما زلت تذكر بأنني اندفعت نحوك.. وقمت بمساعدتك على النهوض عن الأرض.. وقمت بتأدية التحية

العسكرية لك من جديد.. وقمت بمعانقتك وضمك إلى صدري.. وقمنا بالبكاء معا.. وبدموع حارقة غزيرة.. فلم يكن بوسعي سوى أن أضمك إلى صدري بقوة وحرارة.. وأن أقبل جبينك وقلمك؛ ولم يكن بوسعك سوى أن تضمني إلى صدرك بقوة وحرارة.. وأن تقبل جبيني وبندقيتي.. ورحت ترفع يدك التي تحمل القلم عالياً.. وتنشد الأشعار والأهازيج الحماسية التي كنت ترتجلها بصوتك المجلجل المدوي.. ورحت بدوري أردد من ورائك تلك الأناشيد والأهازيج بصوت جهوري مجلجل.. وراح كل الرفاق يرفعون بنادقهم بأيديهم عالياً وهم يرددون حروفك وكلماتك وأشعارك وأناشيدك الحماسية وبقوة عظيمة وحماس غريب.

.. هل تراك ما زلت تذكر ذلك المشهد الرائع؟! أعرف جيدا بأنك ما زلت تذكرة وبشكل جيد.. وها هي ابتسامتك تؤكد ذلك.. وبالطبع.. فلقد كان المشهد تاريخيا مؤثرا.. ولا يمكن نسيانه أبدًا.

أحد الرفاق من رجال المقاومة (الفدائيين) اندفع نحوك.. حملك على كتفيه.. روحت ترفع القلم عالياً.. وتردد الأناشيد الوطنية والأهازيج الحماسية التي هي من بنات أفكارك وارتجالك.. بينما كنت بدوري، والجميع من حولنا، نرددها من ورائك.

.. كنت تحمل القلم بيد.. وعلم فلسطين بيد الأخرى.. إلى أن بح صوتك وصوتي.. وأصوات الجميع.. فأنزلك الرفيق من فوق

كتفيه.. ولم تلبث أن صهرت جسدك في أجساد رجال الثورة ليصبح الجميع بوتقة واحدة مشتعلة.

.. سوف أذكرك بأمر آخر قد يدخل السعادة إلى نفسك وقلبك وروحك.. لا أظنك قد نسيته رغم انقضاء السنوات الطوال!

.. ها أنا أراك تشنف أذنيك وتركز بصرك إلى وجهي وتتابع حركاتي وسكناتي وكلماتي.. أليس كذلك؟!

إنك تستعد وتتهيأ لمعرفة ذلك الأمر الذي سوف أسرده عليك؛ والذي كان قد حدث معك ذات يوم وذلك قبيل حدوث المعركة بيننا وبين العدو في الكرامة!

جميلة

«جميلة«؟!

ها ها... ها أنت تبدل العبوس الذي كان يسيطر على كل حواسك ويغطي محياك، وتحوله إلى ابتسامة رقيقة عذبة رائعة.

أعرف جيداً بأنني بمجرد أن ذكرت اسمها على مسامعك فسوف تتبدل ملامحك كثيراً.

جميلة ..

لن أسألك السؤال التقليدي بأن أقول لك:

-هل ما زلت تذكرها؟! هل ما زلت تذكر «جميلة«؟! لا لشيء إلا لأنني أعرف بأنك ما زلت تذكرها.. بل ما زلت تذكرها وبشكل جيد.. فلا تخادعني أيها الرجل بالله عليك.

.. فأنا.. والكل.. الجميع نعرف جيداً بأنها كانت حبك.. حبيبتك التي كانت ذات يوم.

يومها.. حاولت بدورك أن تداري الأمر عني وعن الجميع..

حاولت أن تنكر أنك أحببتها بجنون.. ومنذ النظرة الأولى.

يومها؛ كنا نقيم في الكرامة.. ونستعد لخوض معركة (الكرامة)؛ فأنا ما زلت أذكر ذلك وبشكل جيد.. وأظنك كذلك.. بل أنا متأكد من ذلك.

فقد كنا جميعاً نستعد لملاقاة العدو الذي أخذ في حشد قواته الضخمة على طول الحدود لمهاجمتنا في قواعدنا في منطقة «الكرامة» وما حولها.

لا يمكن أن أنسى ذلك اليوم أبداً.. تماماً كما هو الحال بالنسبة لك.. فلا يمكن أن تنساه مطلقاً.

كنا نقوم بالاستعداد على قدم وساق في مواقعنا وقواعدنا لملاقاة العدو.. كنا نقوم بتجهيز كافة أنواع الأسلحة ووسائل القتال المختلفة.. وكنت بدورك تقوم بتجهيز أقلامك وأوراقك وقدح زناد فكرك لتسجيل وقائع المعركة الوشيكة.. وكتابة بعض الأناشيد والأهازيج والأشعار الجديدة التي كنت ترددها على مسامعنا فتبث الحماسة في قلوبنا ونفوسنا فنردد حروفك وكلماتك بقوة وحماسة وبصوت مدوٍ مجلجل.

.. كانت ترتدي الملابس العسكرية الخاصة برجال المقاومة (الفدائيين).. كانت تقترب من مواقعنا وأماكن تجمعاتنا بثقة وبخطوات عسكرية منتظمة.. لم يلبث أن قام الجميع بالالتفاف من

حولها والتحلق حولها.. فهذه هي المرة الأولى التي نرى فيها فتاة بالزيّ العسكري الخاص برجال المقاومة (الفدائيين) في المكان !!

راحت تصافحنا بقوة وحرارة فرداً فرداً.. لم تتحرج الفتاة من مصافحتنا رغم تحرجنا العظيم.

شدت على أيدينا بقوة وعزيمة وبشكل غريب.. عجبنا أن يكون للفتاة مثل كل هذه القوة! عرفتنا على نفسها بأنها فتاة أردنية تقيم في عمان.. ليس في عمان العاصمة على وجه التحديد.. بل في أحد مخيمات اللاجئين القريبة من العاصمة.

حدثتنا باختصار عن مدينتها الحبيبة الغالية.. «يافا» السليبة؛ التي غادرتها وأسرتها وعائلتها في مهزلة الحروب المسماة «النكبة»، ولم تكن قد تعدت الأشهر القلائل من عمرها في حينه.. نزحت مع عائلتها وأسرتها عن المدينة متوجهين نحو الشرق.. وأقامت في أحد مخيمات النازحين (اللاجئين) القريبة من العاصمة (عمان).

أخبرتنا بأنها قد حضرت إلى هنا من عمان.. خصيصاً.. لكي تلتحق بالمقاومين في ركب المقاومة ومقارعة العدو في المعركة الوشيكة المنتظرة.. فهي كانت تعيش في المخيم وحيدة بعد أن فقدت والديها تباعاً.. وبعد أن تمردت على ذويها الذين حاولوا منعها من الانضمام إلى صفوف المقاومة على خطوط المواجهة مع العدو.. وراحوا يتهمونها بشتى صنوف وألوان التهم جزافاً.. ولكن هذا وذاك

كانا يجعلانها تزداد قوة وإصراراً على موقفها.. صارت أكثر عناداً وتصميماً على الالتحاق برجال المقاومة (الفدائيين) الفلسطينيين القادمين من غرب النهر بعد النكسة.

.. فجأة.. كانت الفتاة تخرج من بين طيات ملابسها مجموعة من أوراق الصحف والمجلات وتفردها أمام الجميع.. هتفت:

-هذه هي أشعاري وقصائدي المنشورة في شتى الصحف والمجلات..

هذه القصيدة كتبتها عن فلسطين.. وتلك القصيدة عن القدس.. وثالثة عن النكبة.. ورابعة عن «النكسة» .. وخامسة عن رجال المقاومة.. و.. و..

كلها من أشعاري ونظمي.. وها هي صوري الشخصية الملحقة بكل قصيدة منها تشهد على ذلك..

اليوم؛ جئت أكتبكم.. أكتبكم قصيدة.. ملحمة.. جئت أكتب ملحمتكم.. ملحمة بطولة الرجال.. أبناء بلدي.. أبناء وطني.. أبناء فلسطين السليبة الحبيبة الغالية.

.. لم تلبث الفتاة أن أخرجت ورقة أخرى كانت مطوية بعناية بالغة.. فتحت الورقة.. وراحت تهدر..

.. حروف وكلمات ملتهبة من نار.. فيها الحماسة.. فيها الثورة.. فيها القوة.. فيها الشهامة والعزة والكرامة.. رحنا نردد كلماتها من

ورائها بقوة وبأصوات هادرة مدوية.. أصابتنا نشوة غريبة ومشاعر طاغية.. شعرنا جميعاً بالقوة الروحانية والنفسية والجسدية والحماسة تستولي على كل مشاعرنا وأحاسيسنا.

.. رأيناك تقبل عن بعد.. لست متهادياً كما هي عادتك.. بل كنت تحث الخطى نحو الجموع المتحلقة حول الفتاة ذات الزيّ العسكري والشعر الناري.

.. لم تلبث أن توقفت قريباً منها.. رحت تصيخ السمع لحروفها وكلماتها بشكل غريب.. كنت تتفاعل مع كل حرف تردده الفتاة.. مع كل كلمة تتفوه بها.. رحت بدورك تتمتم بها بصمت غريب وكأنك تحاول اختزانها.. تسجيلها.. ترددها في نفسك.

هل ما زلت تذكر ذلك؟!.. بالتأكيد أنت ما زلت تذكره وبشكل جيد..

وما زلت بدوري أذكر كيف أنك اغتنمت فرصة توقف الفتاة ذات الزيّ العسكري المميز والشعر الناري الحماسي لبرهة لالتقاط الأنفاس.. ورحت تردد بصوت مدوٍ مجلجل؛ وأنت ترتجل حروف وكلمات قصيدة جديدة استوحيتها من حروف وكلمات الفتاة التي كانت ترددها! فكانت وكأنها المناظرة الأدبية الشعرية الرائعة فيها الوطنية والحماسة والقوة.

راحت الفتاة؛ وبعد أن استردت أنفاسها؛ وبعد أن توقفت بدورك

عن الكلام لالتقاط أنفاسك.. راحت ترد عليك بحروف وكلمات في القافية والمعنى والقوة والحماسة.. وكأنها كانت في مناظرة أدبية ومطارحة شعرية.

.. ها أنا أراك تبتسم ابتسامة عريضة.. وها أنا أراك تحرك شفتيك بحركات تشبه التمتمة.. وأظنك تردد حروف وكلمات تلك المناظرة الأدبية والمطارحة الشعرية التي كانت يومها..

لقد طال بكما الأمر كثيراً.. سجالاً ما بين مد وجزر.. صراخ متصل وشعر متواصل بلا كلل ولا ملل.. فالفتاة لم تكل ولم تتوقف عن القول.. وأنت كذلك.

أشفقنا عليكما وقد رأينا العرق الغزير يتصبب من جباهكما ووجوهكما رغم برودة الجو.

تدخل بعضنا (لفك الاشتباك) الشعري وإيقاف معركة المطارحة الشعرية الضارية.

اندفع نحوك بعض الشباب والرجال من رجال المقاومة المتواجدين وراحوا يحملونك على الأعناق وأنت ما زلت تردد حروفك وكلماتك وأشعارك النارية.

اندفع بعضهم نحو الفتاة ذات الزيّ العسكري المميز والشعر الناري وتحرجوا من حملها فوق الأعناق.. فأجلسوها على كرسي وراحوا يحملون الكرسي الذي كانت تجلس عليه الفتاة عالياً..

وراحت الفتاة تكمل المعزوفة الشعرية النارية بكل إصرار وعناد..

قام الرجال والشباب الذين كانوا يحملون كليكما بالطواف في شتى الأماكن وهم ما زالوا يرددون من ورائكما شعركما الناري.. فاختلط الحرف بالحرف.. والكلم بالكلم.. والشعر بالشعر.. والصراخ بالصراخ.

.. أصبح سجالاً أدبياً وشعرياً مختلفاً بمذاق مختلف.. وشكل مختلف.. فمرة ترتجل أنت صدر بيت شعري ارتجالاً.. فلا تلبث الفتاة أن تقوم بارتجال عجز البيت الشعري بمهارة وحذق.. ثم تتبادلان الأمور.. فيعلو الصراخ والضجيج من جديد.. وتستبد النشوة بالرجال والشباب الذين كانوا يحملونكما.. فمرة يباعدون بينكما؛ وأخرى يقربونكما إلى بعضكما البعض كثيرا.. فيصبح الوجه أمام الوجه مباشرة.. والعيون في العيون.

.. وكان للشفاه حديث آخر.. وللعيون حديث مختلف.. ولم يلبث أن كلَ الجميع.. ولكنكما لم تكلا.. لم تكلا حديث الشعر وحديث القلوب.. وحديث العيون!

.. وكان لا بد من عودة رجال المقاومة إلى مواقعهم.. وتوجه كل منا إلى موقعه.

.. وبقيتما وحيدين في المكان...

هل تذكر ذلك؟! لا بد أنك تذكره جيداً..

.. بدوري.. كنت أراقب الموقف عن كثب.. كنت أراقبكما بشكل جيد..

يومها.. لم ينبس أحدكما ببنت شفة.. ولم يتفوه أحدكما بحرف.. ولعل ذلك يعود إلى أن أصواتكما قد بحت لكثرة الصراخ والنداء وترديد الأشعار الحماسية.. أو لعل الشفاه قررت أن تترك فسحة لحديث العيون.. أو لعله حديث القلوب!

ها ها.. ها ها.. ها أنت تبتسم.. تضحك.. وتكاد أن تقهقه.. إذ يبدو أنك قد تذكرت ذلك الموقف بشكل جيد..

بصراحة.. لم أكن أعلم بأنك تجيد الحب كما أنت تجيد الحرف.. لم أدرك ذلك الأمر سوى لحظتها.. فلحظتها فقط تأكدت بأنك عاشق من الطراز الأول.. عاشق كبير (من أول نظرة).. تماماً كما أنت شاعر كبير (من أول كلمة).

الكرامة.. المعركة

لعلك ما زلت تذكر ذلك اليوم الذي كان مميزاً.. وذلك الصباح الذي كان غريباً.. ففي الساعة الخامسة والنصف فجراً من يوم الخميس الموافق الحادي والعشرين من آذار (مارس) لسنة ألف وتسعمائة وثمانية وستين الميلادية.. كان العدو يشن هجومه الوحشي وعلى أربعة محاور.

المحور الأول كان (محور العارضة) والممتد من جسر الأمير محمد (جسر دامية) إلى مثلث المصري فطريق العارضة – السلط الرئيس.

أما المحور الثاني فكان محور (وادي شعيب) الممتد من جسر الملك حسين إلى الشونة الجنوبية فالطريق الرئيس المحاذي لوادي شعيب – السلط.

أما المحور الثالث فكان (محور سويمة) والممتد من جسر الأمير عبد الله إلى (غور الراقة).. ناعور.. فعمان.

أما المحور الرابع فكان (محور الصافي) الممتد من جنوب البحر الميت

إلى غور الصافي.. فطريق الكرك الرئيس.

كنت أراك تتحرك بين هذه المحاور بخفة ورشاقة بين المقاتلين قبيل اندلاع شرارة المعركة بلحظات... تبث الحماسة في قلوبهم بأناشيدك وأهازيجك الوطنية الحماسية.

.. ولعلك ما زلت تذكر أن المعارك الرئيسة التي اندلعت قد دارت بالفعل على المحاور الثلاثة الأولى.

فقد قامت قوات العدو بعبور النهر تحت تغطية كثيفة من نيران المدفعية.. وعند تقدمها لمسافة تقارب المائتي متر؛ فوجئت بمقاومة عنيفة لم تتوقعها بالمطلق.. وقد أدت المقاومة الشديدة إلى إعاقة تحركها وتقدمها.. مما حدا بالعدو أن يدفع بعناصر جديدة محمولة بالحوامات؛ فأنزلت بعضها في (غور الصافي) وذلك بقصد التمويه والتضليل.. ولكنها قامت بإنزال معظم تلك القوات في (الكرامة) ومحيطها.

قامت القوات العربية من المقاومين (الفدائيين) والجيش الأردني المشارك بالتصدي لها وكبدتها خسائر فادحة.. مما حدا بالقيادة الإسرائيلية إلى زج قوات إضافية وبكثافة كبيرة.. وراحت تركز قصفها على مرابض المدفعية الأردنية ومواقع الفدائيين ومرابض الدبابات والمدافع المضادة للطائرات..

وفي تلك الأثناء كانت حوامات العدو لا تزال تتابع نقل عناصر

إضافية من جنود العدو.. ومن ثم العودة بالجرحى وجثث القتلى.. بينما استمرت القوات المدرعة بمتابعة القصف المدفعي العنيف والمركز لمتابعة تقدمها.

وبعد عدة ساعات من المعارك حامية الوطيس؛ تمكنت قوات العدو من الاتصال بالقوات التي تم إنزالها جواً في (الكرامة).. فدارت بينها وبين سرية من الفدائيين معارك دامية؛ بدأت بالبنادق والرمانات اليدوية (القنابل اليدوية) ثم بالسلاح الأبيض.

ها أنت ترف بعينيك وجفونك بسرعة غريبة وكأنك تتابع تذكر تلك الجولة البطولية التي خاضها رجال المقاومة الفلسطينية (الفدائيين) ضد العدو المعتدي.. ولعلك تتذكر جيداً بأن القوات الأردنية الصديقة المشاركة في المعركة، التي خاضت معارك عنيفة ضد العدو في المحاور.. قد أحبطت تقدم العدو ومنعته من تنفيذ مخططاته.

وبعد مرور عدة ساعات على البدء بتلك المعارك التي أبلى فيها رجال المقاومة الفلسطينية ورجال القوات الأردنية المشاركة بلاءً حسناً؛ فقد كانت خسائر العدو قد تزايدت بشكل كبير لم يتوقعه العدو.. واتضح لهم الثمن الفادح الذي دفعوه والذي سيدفعونه لقاء كل تقدم.. وقاموا بالادعاء بأنهم قد أتموا تنفيذ المهمة العسكرية الموكلة بهم.. ومن ثم بدأوا بالانسحاب من أرض المعركة.. وطلبوا وقف

إطلاق النار بواسطة الجنرال (أود بول) كبير المراقبين الدوليين.. ولكن المقاومة والقيادة الأردنية رفضت قبول طلب وقف النار حتى انسحاب القوات الإسرائيلية بالكامل.. وقد تم بالفعل انسحاب آخر جندي إسرائيلي وذلك بعد أكثر من خمس عشرة ساعة على بدء المعركة.

ها أنت ترسم على وجهك ابتسامة عريضة وكأنك تتذكر تفاصيل تلك المعركة التي دارت رحاها في (الكرامة).. فأعادت لنا (الكرامة).

وأذكر بأنك قد تأثرت كثيرا بتلك الملحمة البطولية الخالدة.. التي خاضها رجال المقاومة من الفدائيين الأشاوس خلال المعارك التي خاضوها ضد جنود العدو وآلياته خلال المعركة وحتى اللحظات الأخيرة منها، وانسحاب قوات العدو التي كانت تتعرض لشر هزيمة كما هو الأمر لتعرضها للكمائن العديدة التي كان قد بثها رجال المقاومة قبل المعركة والتي ألحقت بالعدو خسائر فادحة بالأرواح والمعدات والآليات.. رغم أن قوات العدو قد توغلت لمسافة عشرة كيلومترات على جبهة امتدت من الشمال إلى الجنوب بطول يقارب الخمسين كيلو مترًا.. فأتحفتنا بدورك بالعديد من الأناشيد والأهازيج الحماسية الوطنية الجديدة تأثرا بالمعركة وبطولات رجال الثورة والمقاومة والفدائيين بمشاركة عناصر من الجيش الأردني.

.. وفي النهاية.. كانت المعركة تشكل (نكسة).. ولكنها كانت في

هذه المرة (نكسة للعدو) المتغطرس؛ وقد اقتنع قادة العدو السياسيون والعسكريون على حد سواء بأن العملية كانت عملية فاشلة بكل المقاييس... وأن المفهوم التكتيكي للعملية برمتها كان فاشلاً وخاطئاً من الأساس.. وأن النتائج النهائية للمعركة قد أدت إلى نصر سيكولوجي للمقاومة الفلسطينية التي كبدت العدة خسائر فادحة.

ها أنا أراك تتحرك يمنة ويسرة.. وها أنا أراك تحاول النهوض من مكانك.. من رقدتك.. أحس بأنك تود أن تذكرني بأمر ما! أشعر ذلك من خلال انفعالك وتفاعلك للذكريات..

لعلك تذكر وبشكل جيد ذلك اليوم الذي حدث فيه الأمر الجلل والغريب بالنسبة لك.

ففي اليوم التالي لانتهاء معركة (الكرامة).. وبعد أن قمت بإتحافنا بالأهازيج والأناشيد والأغاني الوطنية الحماسية بمشاركة الفتاة ذات الزيّ العسكري المميز.. وفي المساء حدثت المفاجأة الغريبة؛ والتي لم نكن نتوقعها بالمطلق.. ولم أكن بدوري أتوقعها وكذلك الأمر بالنسبة لجميع الرفاق.

ففي خضم تلك الاحتفالات الرائعة التي كنا نقوم بها جميعاً.. اختفت الفتاة «جميلة»!

نعم.. اختفت «جميلة» وبدون مقدمات.. فكان الأمر مفاجئاً وغريبا حقاً.. ووقع الأمر عليك وعلينا جميعاً وقوع الصاعقة..

.. رحنا جميعاً نبحث عنها هنا وهناك.. وفي كل الأماكن بدون جدوى.. ورحت بدورك تبحث عن الفتاة كالمجنون.. وتصرخ بأعلى صوتك منادياً:

-«جميلة».. «جميلة».. «جميلة»...

ولم يكن يرد عليك سوى صدى صوتك الذي كان يتردد في جنبات الأرض وأرجاء السماء..

.. ما زلت أذكر نوبة الجنون الغريب التي أصابتك.. والتي أدت بك إلى الرقود في الفراش؛ وقد استبدت بك هلوسات الحمى الشديدة.. ولم تكن تردد في تلك النوبات الهلوسية الغريبة سوى اسم «جميلة» ولا تمل تكرار ذكر اسمها على مدار الوقت.

كان الأمر واضحاً وبشكل جيد بالنسبة لي كما هو الأمر بالنسبة للآخرين.. فلقد عرفنا مدى حبك وشغفك وتعلقك بالفتاة ذات الزيّ العسكري المميز.

في حينه.. رحت بدوري أخوض غمار التفكير والحدس والتخمين بالنسبة لغياب الفتاة المفاجئ!

فلعلها ملت حياة العسكرية وشظف العيش فيها! أو لعلها ملت الحياة بين مجموعات المقاومين من الرجال! أو لعلها خافت من الموت الزؤام بعد أن رأت بأم عينيها كيف يستشهد الرجال والشباب في ساحة المعركة! أو لعلها خشيت مغبة هذا الحب العظيم الذي كان

بينكما! أو لعل لها ظروفها الشخصية الخاصة التي لا تسمح لها بالبقاء هنا أكثر وقت .. أو.. أو..

بدوري.. فلقد كرست معظم وقتي للمكوث إلى جانبك أحاول أن أخفف عنك المصاب والألم والحمى.. أحاول قدر جهدي تقديم المساعدة والدواء والعلاج الذي وصفه لك الطبيب.. وكنت أرثي لك.. أشاركك الألم والحزن والأنين والدموع.. لقد كانت أياماً قاسية وعصيبة بالفعل.. تفرغت خلالها لمتابعتك والإشراف على أمور خدمتك وتطبيبك بدون كلل أو ملل.

.. وكانت المفاجأة الجديدة.. تلك التي حدثت بعد عدة أيام.. ولعلك أيضاً ما زلت تذكرها بشكل جيد كما أذكرها بدوري..

ففي ذلك الصباح.. كنت تفتح عينيك المجهدتين المكدودتين عن آخرها.. وتشنف أذنيك المرهقتين وقد تناهى إلى مسامعك صوت يأتي عن بعد!

لم يكن ذلك الصوت الذي تناهى لمسامعك ومسامعي سوى صوتها.. نعم.. صوتها هي.. «جميلة»!

فها هي قد ظهرت فجأة كما كانت قد اختفت فجأة!

كانت الفتاة تقترب منك بهدوء خطوة خطوة؛ وهي تركز بصرها إلى وجهك المجهد المكدود.. وقد بدا الهزال والضعف واضحاً جلياً على وجهك وجسدك.

.. اقتربت الفتاة منا بما فيه الكفاية.. راحت تتحسس جبينك الملتهب وتمسح حبات العرق النارية المنهمرة من شتى أرجاء وجهك..

لم تلبث الفتاة أن أبعدتني برقة وأزاحتني بهدوء عن مكان جلوسي إلى جانبك ومكان رقودك الذي استمر أياماً طوال.. جلست الفتاة إلى جانبك وراحت تضع «كمادات» المياه الباردة المتعاقبة على جبينك وأطرافك.

بدورك.. فقد كنت تنظر إليها ببلاهة عجيبة وتساؤل غريب! لم تنبس ببنت شفة ولم تنطق بحرف وكأن لسانك قد انعقد وتم ربطه بسلاسل فولاذية رهيبة.

.. بدوري؛ فلقد وقفت إلى جانبكما أشاهد عن كثب ذلك المشهد الغريب الصامت (الصاخب)!

بدورك.. لم تلبث أن أخذت بالتململ ببطء.. حاولت أن تفتح عينيك أكثر لعلك كنت تريد أن تستوعب المشهد، وأن تتحقق من الأمر بشكل جيد.. حاولت أن تفتح فاك كي تتمتم ببعض الحروف والكلمات التي كانت تشبه الهمس.. حاولت أن تنهض من مكانك بقدر ما تبقى بك من قوة واهية.

رحت أندفع ناحيتك أقصد مساعدتك على النهوض.. لوحت لي بقبضة يدك الواهية وكأنك تشير لي أن أقف مكاني وأن أظل بعيداً عنك.

.. مددت يدك ناحية كتف الفتاة وكأنك تريد أن تتوكأ عليه للمساعدة في النهوض من الفراش.. راحت الفتاة تمد بكلتا يديها نحوك لمساعدتك على الوقوف.. لقد كان بها من القوة ما مكنها من ذلك.. رأيتك تنتصب واقفاً ولكنك كنت تترنح وتتمايل.. أسندتك الفتاة بذراعيها كي تمنع سقوطك على الأرض.

لم تكن هذه هي المفاجأة الوحيدة التي حدثت يومها؛ فلقد كان أمر نهوضك من فراش المرض بهذه السرعة عندما شاهدت الفتاة بمثابة المفاجأة التي تصل إلى حد المعجزة.. ولكن؛ لم تكن هذه هي المفاجأة والمعجزة الوحيدة التي حدثت لحظتها.

-.. «ماما»!

.. اندفعت طفلة جميلة صغيرة نحو الفتاة الكبيرة ذات الزيّ العسكري المميز.. وهي ما زالت تهتف بصوت طفولي فيه البراءة والرقة والعذوبة:

-.. «ماما»!

.. وكانت بالفعل مفاجأة أخرى من النوع الثقيل.. بل الثقيل جداً..

.. بدوري.. لم أستطع أن أستوعب الموقف.. وأنت كذلك؛ فلقد اندفعت الطفلة الملائكية نحو الفتاة الكبيرة ذات الزي العسكري المميز.. وهي تفتح ذراعيها عن آخرها وهي ما زالت تهتف برقة وعذوبة وبراءة:

-.. ماما.. ماما .. ماما ..

مدت الفتاة الكبيرة بإحدى يديها ناحية الطفلة الجميلة.. وحملتها برقة وحنو.. وراحت تضمها إلى صدرها.. إلى قلبها.. وراحت تتشممها.. تقبلها.

بهت الجميع للأمر.. ولم ينبس أحدنا ببنت شفة ولم نتفوه بحرف؛ فلقد كانت المفاجأة أقوى من كل حديث ومن كل قول.. بينما آلاف علامات الاستفهام تدور في مخيلتي.. ومخيلتك.. ومخيلة الجميع..

فمن تكون هذه الفتاة الصغيرة الجميلة؟

وهل هي ابنتها حقاً؟!

وأين غابت الفتاة الكبيرة ذات الزيّ العسكري المميز كل ذلك الوقت القصير (الطويل)؟!

.. لماذا؟ أين؟ كيف؟ متى؟

وآلاف علامات الاستفهام الكبيرة التي لا يجد لها أحد منا جواباً.

.. الفتاة الكبيرة؛ يبدو بأنها شعرت بما يدور في أذهان الجميع من تساؤلات.. وحيرة.. وتعجب..

راحت تهتف برقة:

-إنها ابنتي.. ولم العجب؟!

.. وحقيقة الأمر أنني كنت قد غبت عنكم تلك الأيام القليلة الماضية لأنني.. لأنني عدت إلى عمان.. كي أنهي بعض الإشكاليات

مع زوجي.. نعم.. زوجي.. ولم العجب؟!

فأنا سيدة متزوجة من أحد أقاربي.. ومنذ عدة سنوات خلت لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة.. أنجبت خلالها هذه الطفلة.. «فلسطين»..

نعم.. اسمها «فلسطين» .. أنا أسميتها كذلك.. رغم معارضة زوجي وذويه على هذه التسمية.. فأنا لم أكن على وفاق معه ومعهم.

لقد بلغ السيل الزبى.. ولم أعد أطيقه أو أطيق ذويه.. أقاربي.. فهو رجل فظ غليظ القلب.. كان يعاملني بمنتهى القسوة.. يشتمني.. يسبني.. ويضربني بقسوة ووحشية.

كنت أتحمل كل هذا وذاك من أجل طفلتي.. من أجل «فلسطين» .. ولكن الطفلة الصغيرة كبرت وأصبحت في الرابعة من عمرها.. ولم أعد احتمل قسوته وظلمه وتعديه عليّ بالضرب المبرح أمام الطفلة وعلى مشهد منها..

كانت الطفلة تشاركني الألم.. المعاناة.. البكاء والدموع.. ولم يعد الشتم والسب والضرب قاصراً عليّ فحسب.. بل تعداه إليها!

أصبحت الكوابيس المخيفة الرهيبة تطارد الطفلة طوال اليوم.. وطوال ساعات نومها الأرق.. فتصحو من النوم فزعة تصرخ بشكل جنوني وهي تبكي بمرارة وحرقة.. ولم أعد أطيق الأمر أكثر من هذا.. فلم يعد بي من قوة تحمل أكثر.. فقررت الانفصال عنه..

وقمت بتقديم العديد من الشكاوى لمخافر الشرطة وتقديم التقارير الطبية الشرعية العديدة والتي تثبت تعديه عليّ وعلى الطفلة بالضرب المبرح وإظهار آثار الضرب المبرح من كدمات وسحجات وندوب وجروح غائرة.. عدا تلك الجروح الغائرة التي حدثت في أعماق النفس والروح مني ومن طفلتي.

كنت قد تغيبت عنكم خلال الأيام الماضية لإتمام إجراءات الطلاق منه.. وقد تم كل هذا ولكن بعد أن قمت من جانبي بدفع الثمن الغالي.. ولكنه على كل حال ثمن بخس إلى جانب نيلي حريتي واستحواذي على طفلتي.

فلقد تنازلت له عن كل حقوقي الشرعية والقانونية وكل ما أملك مقابل نيل حريتي ومقابل حصولي على حضانة طفلتي البريئة..

ألا ترون معي بأن «فلسطين» تستحق كل تلك التنازلات والتضحيات من جانبي؛ إلى جانب بقائها إلى جانبي.. معي.. لي.. عدا عن نيلي لحريتي؟!

فلو أنني كنت أملك كنوز العالم أجمع.. وقمت بدفعها ثمناً لحريتي.. ولبقاء طفلتي إلى جانبي.. لكنت أنا الرابحة في تلك الصفقة بلا شك.. فحريتي تستحق.. و«فلسطين» تستحق أكثر.

كان الموقف مؤثراً جداً.. فلقد شعرنا جميعاً بتفاعل الفتاة الكبيرة وتأثرها العظيم وانفعالاتها.. ولأول مرة أرى الفتاة الفولاذية ترتجف

بشدة وعصبية.. ثم تنهار وتبكي بحرقة.. وتكف عن الحديث.. ولكنها لم تكف عن البكاء.. بينما راحت الطفلة الصغيرة تشاركها الألم.. البكاء والدموع الغزيرة.. بحرارة وحرقة.. ورحت بدوري أحاول مواساتها وتهدئتها مرة.. وأحاول الأمر ذاته معك مرة أخرى.. وأحاول أن أفعل الأمر ذاته مع الطفلة الصغيرة ألف مرة.. بالكاد؛ استطعت في النهاية تهدئة الفتاة الكبيرة وتهدئتك وتهدئة الطفلة.. بينما كانت هناك ثمة دموع حائرة حارقة تترقرق في عينيّ.

.. بحركة رومانسية غريبة ومفاجئة.. كانت الفتاة ذات الزيّ العسكري المميز تميل برأسها ناحية صدرك.. لعلها كانت بذلك تترجم شكرها وامتنانها لك لمشاركتك بالمواساة والدموع.. أو لعلها كانت تترجم بذلك امتنانها الشديد وتقديرها لك لأكثر من أمر.. بل لعلها كانت تترجم ما يعتمل في صدرها وقلبها من مشاعر حب مكتوم لك.

وبحركة مفاجئة أخرى.. كانت الطفلة الصغيرة الجميلة تتخلص من بين يديّ أمها... وتندفع نحوك.. وتلقي بنفسها بين ذراعيك.. إلى صدرك.. وهي تهتف برقة من بين الدموع بابتسامة غريبة:

-.. بابا .. بابا!

لم ندرك جميعاً سر ما تفوهت به الطفلة.. ولم نعرف السبب الذي دفعها للنطق بتلك العبارة.. فهل كان الأمر اندفاعاً ذاتياً بحتاً يمثل

البراءة والطهارة والنقاء الطفولي؟! أم تراها حركة تقليد قامت بها الطفلة الصغيرة تجاهك مقلدة ما قامت به الأم نحوك؟! أم تراه الشعور بالحرمان من العطف والحنان والأبوة الحقيقية التي افتقدتها طويلاً..

بدورك.. رحت تقبل الطفلة بعطف وحنو وحنان عظيم.. ورحت تمسح على رأسها وتمسد شعرها.. ولم تلبث الطفلة أن قفزت من بين يديك إلى الأرض بقفزة بهلوانية جميلة.

رغم أنك كنت قد عرفت اسم الطفلة الصغيرة في سياق الحديث الذي كانت تسرده الأم على مسامعك ومسامعنا.. عندما كانت تتحدث عما حدث معها من أحداث ومواقف مؤثرة.. إلا أنك ابتسمت - من بين الدموع - ابتسامة عريضة رائعة وأنت تسألها بلطف ورقة:

-شو اسمك حبيبة بابا؟

.. هتفت الطفلة برقة وعذوبة بينما الابتسامة العريضة من بين الدموع تغطي محياها:

-«فلثتين»!

فلسطين

كم كانت رائعة تلك البراءة والرقة والعذوبة و«اللثغة» الحلوة التي انطلقت من بين شفتي الطفلة الجميلة وهي تنطق باسمها بهذا الشكل (فلثتين).. بدلاً من (فلسطين)! ويبدو بأنك قد قررت «المناكفة» و«المشاكسة» مع الطفلة.. فقمت بالادعاء بأنك لم تسمع الاسم جيدا.. ورحت تسألها من جديد والابتسامة الجذلى تغطي محياك:

-ماذا؟ ماذا قلت؟ فأنا لم أسمع بشكل جيد؟

.. هتفت الطفلة ببراءة وعذوبة:

- قلت لك: «فلثتين».. «فلثتين».

ضحكت من كل قلبك لأول مرة.. كما انفجرت بدوري والجميع بالضحك.. ولم تلبث الطفلة أن تفاعلت مع الجميع بالضحك، خاصة بعد أن رأت أمها تضحك من كل قلبها، ولم تلبث أن اندفعت نحوك من جديد.. و«تشعلقت» بك.. وتعلقت برقبتك.. وراحت تعبث بلحيتك بسذاجة وبراءة الطفولة.

ولم تلبث أن ارتسمت ابتسامة عريضة رائعة على وجه الفتاة الكبيرة ذات الزيّ العسكري المميز.. وهي تطبع قبلة طويلة رائعة على وجنتيّ الطفلة.

.. أصبح المشهد مشهداً مألوفاً لدى الجميع من رجال المقاومة.. فمشهد الطفلة الصغيرة الجميلة وهي تسير إلى جانبك مرة.. وتتعلق بأطراف ثيابك تارة.. وتحملها بين يديك مرة ثالثة.. وفوق كتفيك مرة رابعة.. وأصبح الجميع قد اعتادوا على ذلك المشهد والذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتهم اليومية المعتادة.. فأطلق عليك الجميع لقب «أبو فلسطين» رغم أن الجميع يعلمون جيداً بأنك لست متزوجاً.. وأن «فلسطين» الطفلة ليست ابنتك.. ولكنها أصبحت ملازمة لك، كما هو الحال بالنسبة لأمها تماماً، وأصبحت وكأنها ابنتك الحقيقية بالفعل.. الكثير من الرفاق.. كان يتلفظ باللقب بطريقة مختلفة.. «أبو فلثتين» مقلدين بذلك ما نطقت به الطفلة الصغيرة الجميلة.

لم يقتصر أمر التقارب والتجاذب بينك وبين الطفلة الصغيرة الجميلة فحسب.. بل تعداه إلى الأم.. فأصبحتم وكأنكم «الثالوث العجيب».. أو كما كان يحلو للبعض أن يطلق عليكم لقب «مثلث الحب الجميل»..

.. في النهاية.. تأكد الجميع بأن هناك ثمة قصة حب عظيمة ورائعة بينك وبين الطفلة الصغيرة الجميلة.. ولكنهم كانوا متأكدين تماماً

وبما لا يقبل مجالاً للشك بأن هناك قصة حب أكبر وأعظم وأروع بينك وبين الأم.. الفتاة ذات الزيّ العسكريّ المميز «جميلة».

ها أنا أحس من همهماتك ودمدماتك بأنك تريد أن تذكرني بأمر ما.. بشيء ما لم أسرده على مسامعك.. أعتقد بأنك تريد أن تذكرني بما حدث بعد المعركة التي انتصرت فيها المقاومة الفلسطينية انتصاراً باهراً.

أنا أشاركك الأمر فيما أنت تفكر به الآن.. فحقاً بأن معركة (الكرامة) كانت علامة فارقة في التاريخ النضالي الفلسطيني بشكل خاص والعربي بشكل عام.. وقد تجلى ذلك بالفعل بما حدث من انكباب الشباب الفلسطيني بسائر أطيافه لتقديم طلبات الالتحاق والانضمام لصفوف المقاومة.. ولم يكن غريباً أن يكون معظم الشباب الذين تقدموا للانضواء تحت لواء المقاومة من الشباب المثقفين وحملة الشهادات الجامعية العليا.. ولن ننسى - سواءً أنا أو أنت - تلك المهرجانات والتظاهرات والمسيرات الضخمة التي قوبل بها الشهداء الأبطال لمعركة (الكرامة) والذين تم دفنهم في المدن العربية المختلفة.

ولا يمكن أن ننسى ذلك الاهتمام العظيم والمتزايد من الصحافة العربية والأجنبية على حد سواء بالمقاومة الفلسطينية؛ وهذا ما حدا بالكثيرين من الشباب الأجانب إلى التطوع في صفوف المقاومة.. فقد أدرك الجميع بأن معركة (الكرامة) قد أعطت معنًى جديداً لمفهوم

المقاومة.. ولا شك بأنك ما زلت تذكر خيبة الأمل الكبرى التي أصابت العدو وقادته عندما شعر قادتهم بأنهم قد أخفقوا في تحقيق أهدافهم الإستراتيجية والعسكرية لرفع معنويات الإسرائيليين؛ بل حدث العكس؛ فقد ساهمت المعركة في زيادة خوفهم وانعزالهم.

أما على الجانب الآخر.. فقد كانت معركة (الكرامة) نوعاً من استرداد جزء من (الكرامة) التي فقدتها القوات المسلحة العربية في حرب حزيران سنة 1967م.. والتي لم يكن قد أتيح لها فرص القتال الحقيقي.

لعلك ما زلت تذكر تلك الأناشيد والأهازيج والأغاني الوطنية الحماسية التي قمت بدورك بنظمها وإلقائها على مسامع الجميع ابتهاجاً بالنصر المؤزر الذي حققه رجال المقاومة... فلا بد أنك ما زلت تذكر ذلك جيداً.

.. لقد تغنيت وأنشدت الكثير والكثير من الأغاني والأناشيد الوطنية الحماسية بتلك المناسبة.. وكنا نردد من ورائك كل حروفك وكلماتك بقوة وحماسة وسعادة.. كما شاركتنا الفتاة ذات الزيّ العسكري المميز نظم وترديد الأغاني والأشعار والأناشيد.

لقد كانت خسائر العدو التي أوقعها به رجال المقاومة خسارة جسيمة.. فقد بلغت أكثر من سبعين قتيلاً، وأكثر من مئة جريح، وأكثر من خمس وأربعين دبابة، وأكثر من خمس وعشرين مجنزرة،

وأكثر من سبع وعشرين آلية مختلفة، وخمس طائرات حربية مقاتلة.

من جانبنا فقد خسرنا سبعة عشر شهيداً؛ وفي الجانب الأردني المشارك نحو عشرين شهيداً وخمسة وستين جريحاً، وعشر دبابات وعشر آليات مختلفة ومدفعين.

دمر العدو عدداً كبيرا من المنازل وأسر مئة وسبعة وأربعين عربيا من القرويين المزارعين بحجة أنهم فدائيون.. وبالمجمل.. فقد كسبت قوات المقاومة (الفدائيين) المعركة بامتياز.. وخسرها العدو بامتياز.

.. ما لي أراك تتململ هكذا وتعبس؟! وتقطب جبينك متجهماً؟! وها أنا أرى دمعة حائرة تترقرق في عينيك..

أظن أن هذا وذاك يعودان إلى أن شريط الذكريات الذي يدور في ذهنك الآن قد عاد بك إلى تلك الأيام السوداء التي كانت..

فبعد معركة (الكرامة) الخالدة.. كانت المقاومة قد أصبحت قوة حقيقية في الأردن.. وانتقلت من التكتيك العسكري المعروف (اضرب واهرب).. إلى تكتيك أكثر تقدماً ونجاعة.. وهو التكتيك المعروف بـ(المواجهة المحدودة).. وتطور الأمر إلى أن وصل إلى تكتيك (التحرير المؤقت).

لا أظنك قد نسيت ذلك الموقف المشهود لأحد أبطال المقاومة الفلسطينية يومها.. والذي عرفناه معا وعرفه الجميع..

ففي ذلك اليوم البعيد القريب..

رجولة

.. كالطود الأشم كان يقف منتصب القامة... كالليث الجسور كان يتحرك في كل اتجاه.. عملاق القامة؛ عريض المنكبين ، يرتدي الزيّ العسكري المرقط المميز.. يتمنطق بكافة أنواع الأسلحة الشخصية المختلفة في الحزام المثبت حول خاصرتيه.

كان في إجازة قصيرة.. أقرب ما تكون إلى «استراحة المحارب» منها إلى الإجازة.. كانت الإجازة تلك أو «استراحة المحارب» قصيرة جداً.. لعلها لساعات.. أو لدقائق معدودة.. فهو في عجالة من أمره... وليس لديه المتسع من الوقت لاستبدال الملابس المدنية بزيه العسكري.. فالوقت قصير قصير... ولا يتحمل مثل فعل كل هذا وذاك.

الأطفال يتحلقون من حوله بسعادة ومرح.. الرجال يصافحونه بحرارة ويقبلونه بفرح.. إحدى النسوة تطلق «زغرودة» رنانة فتتبعها بقية النسوة بألف زغرودة مدوية مجلجلة.

الجميع يحاولون الاقتراب منه والتمسح به ومصافحته وملامسته تيمناً وتبركاً.. فخراً وافتخاراً.. فهو أحد أبناء الحيّ.. وهو من أولئك الرجال الشجعان الذين هبوا للذود عن حياض الوطن الغالي ضد العدو المعتدي الغاشم.

الكل كان يعتبره «رمز المقاومة» لما له من سمعة مدوية.. وصولات وجولات في ميادين المعارك والتي حقق فيها - بصحبة رفاقه - البطولات العظيمة.

كان يتولى القيادة لمجموعته المختارة من «النخبة الممتازة»، والتي حققت العديد من الانتصارات المدوية المتتالية في ميادين المعارك على العدو على مدار الأيام والأسابيع والشهور الماضية.

.. الحلقة من حوله تزداد اتساعاً.. الهرج والمرج الممزوج بالضحكات و«الزغاريد» يطغى على المكان.. المكان يتحول إلى ساحة مهرجان وعرس شعبي كبير..

تتقدم مجموعات أخرى من الأطفال لتقدم له الأكاليل من الورود والزهور.. الجموع الحاشدة المحدقة به من كل حدب وصوب.. المحيطة به من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم.. تزداد حماسا واقترابا منه.. وتماساً.. بينما الابتسامة الطاغية تغطي محياه..

أحد الأطفال تستبد به النشوة الطاغية والسعادة الغامرة.. فيقترب كثيرا من الشاب العملاق ذي الزيّ المرقط المميز المتمنطق بكافة

أنواع الأسلحة الشخصية المختلفة..

الطفل يتجاوز الحدود كثيراً.. يقترب من الشاب العملاق أكثر فأكثر.. وفي لحظة خاطفة.. وبدون أن يتنبه له الشاب العملاق أو أن يتنبه له أي أحد آخر.. كان الطفل يقوم بانتزاع «القنبلة اليدوية» من مكانها المثبتة به في حزام الشاب العملاق!

كانت اللحظات تمر سريعة بشكل خارق..

.. جزء من الثانية كانت تلك التي استغرقت انتزاع «مسمار الأمان» في القنبلة اليدوية من الطفل.. وفي جزء آخر من الثانية.. كان الشاب العملاق يتنبه للأمر ولخطورة الموقف.. فإن القنبلة سوف تنفجر بعد ثوان قليلة جداً.

في الجزء الأول من الثانية التالية.. كان الشاب العملاق يهدر بصوت كالرعد في الجموع الحاشدة بضرورة الابتعاد عن المكان وبأقصى سرعة تجنباً للكارثة.

وفي الجزء التالي – والأخير – من الثانية.. كان الشاب العملاق يتصرف بالأمر.. لكي ينقذ الجموع الحاشدة من الكارثة المحققة.

الشاب العملاق ذو الزيّ المرقط المميز.. كان قد تصرف بسرعة رهيبة خلال ذلك الجزء الأخير من الثانية.. بعد أن تأكد له وبشكل قاطع بأن الموقف جد خطير.. وأن كارثة محققة ومؤكدة سوف تحدث في لمح البصر.. وأنه يجب عليه التصرف بسرعة خارقة تفوق

لحظات الزمن.

وقد كان...

بسرعة خارقة من وراء الزمن وحساباته.. كان الشاب العملاق يسارع لتنفيذ الفكرة التي ستنقذ الجميع..

فقد كان يلقي بجسده الضخم فوق القنبلة اليدوية.. لكي يمتص جسده كل شظايا القنبلة!

وفيما تبقى من الثانية الأخيرة.. كان الجميع يسمعون صوت انفجار مكتوم.. ويشاهدون قطعاً من القماش المرقط المميز وهي تتناثر في المكان.. وبداخلها قطع من اللحم البشري المتناثر..

المأزق

.. ولعلك ما زلت تذكر وبشكل جيد ما قامت به قوات الثورة الفلسطينية.. (الفدائيين) من إنشاء «القوة المحمولة» والتي كانت تتألف من ستمائة مقاتل وثمانين سيارة جيب عسكرية مزودة بالسلاح الملائم.

ولكن الذي حدث فيما بعد بأن بعض التنظيمات (الصغيرة) كانت لا تزال تعمل ضمن الخطة المعروفة بـ(البعوضة والفيل).. والتي هي عبارة عن عمليات إزعاج لجيش العدو.. وقامت بتأسيس قواعد للفدائيين التابعين لها داخل مخيمات اللاجئين في الأردن.

الذي زاد الطين بلة أن أولئك (الفدائيين) أخذوا يظهرون في المدن الأردنية المختلفة وهم يحملون السلاح جهاراً نهاراً.

وازداد الأمر سوءاً عندما أخذت سياراتهم تجوب الشوارع الأردنية بدون لوحات مخالفين القانون.

الأمر كان شديد الحساسية بالنسبة للمسئولين والقادة الأردنيين

الذين اعتبروا أن هذا وذاك يعتبر تحدياً للدولة الأردنية وهيبتها.. وتعدياً على القانون والنظام العام.. كل هذه الأمور من الحساسيات والاحتكاكات أدت إلى توجس متراكم بين الطرفين.

ولعلك ما زلت تذكر ما حدث عندما هاجم الجيش الأردني قواعد الفدائيين في مخيم الحسين وفي مخيم الوحدات في عمان، وفي مخيم (شنلر) في مدينة الزرقاء في 1968/ 10/ 15 وفي 1968/ 11/ 5.. وازدياد عدم الثقة حينما طلب الملك حسين وقائد الجيش الشريف ناصر بن جميل (وهو خال الملك حسين) من الفدائيين إبلاغ الجيش الأردني بأي عملية عسكرية يقومون بها ضد إسرائيل قبل تنفيذها، وعدم شن أي عملية في المنطقة المحيطة بميناء العقبة.. ورفض ياسر عرفات هذه الشروط، وساندته فصائل المقاومة الفلسطينية في هذا الموقف بعدما أيقنت أن النظام الأردني يستعد لتصفيتها، فسارعت «فتح» إلى إنشاء الميليشيا ذات الطابع المدني، فضلا عن القوة المحمولة.

وبالفعل، فقد شرع الملك حسين بالاستعداد للمواجهة الحاسمة، فبدأ في تقوية علاقته بعشائر الأردن وقبائله، هذه العشائر والقبائل التي يأتي منها معظم ضباط الجيش الأردني.

وقام بتعزيز مكانة الجيش الأردني، فأصدر مجلتين وهما الأقصى والجندي، وراحت إدارة التعبئة توزع الوعاظ والقراء على الجنود

وتحرضهم على اليساريين؛ وتقصد بهم التنظيمات الفلسطينية للفدائيين.

وجرى تعزيز إمكانيات ومقدرات الاستخبارات الأردنية التي كرست نشاطها لمراقبة الفدائيين وقادتهم، كما أنشأت مجموعات فدائية مزورة تابعة للاستخبارات الأردنية.

في اليوم التالي للقاء الملك حسين والرئيس جمال عبد الناصر؛ أي في يوم 1970/ 2/ 10، اجتمع مجلس الوزراء الأردني في جلسة خاصة حضرها ولي العهد الأمير حسن، وقائد الجيش ناصر بن جميل، ومدير الاستخبارات العامة نذير رشيد؛ واتخذ مجلس الوزراء مقررات عدة من بينها حظر حيازة الأسلحة ونقلها، ومنع المسيرات والاجتماعات العامة، وفرض الرقابة على المطبوعات وعلى العمل الحزبي.

ولعلك ما زلت تذكر ما حدث في 1970/ 2/ 12، عندما وقع اشتباك مسلح بين عناصر من الفدائيين ومجموعة من الجيش الأردني سقط فيه 13 فدائياً و6 جنود.

وكان ياسر عرفات، في تلك الأثناء، يزور موسكو في أول زيارة رسمية له إلى الاتحاد السوفيتي، فسارع بالعودة إلى عمان في اليوم نفسه لوقوع ذلك الاشتباك، أي في 1970/ 2/ 12، وتمكن من وقف المعارك ومنعها من الامتداد إلى مناطق أخرى.

منذ ذلك الوقت استمرت الاشتباكات بين الفدائيين والجيش

الأردني، وراح الوضع الأمني يتدهور بالتدريج... ففي يوم 2/5/1970 وقعت اشتباكات في وادي الأردن وذلك حينما استولى الجيش الأردني على قاعدتين للفدائيين.

واندلع القتال مجدداً في يوم 7/6/1970 في مدينة الزرقاء، وفي محيط مخيم (شنلّر) بالتحديد.. واستفحل الأمر في يوم 9/6/1970 عندما قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باقتحام فندقين في وسط عمان، واستولت عليهما، واحتجزت فيهما 88 رهينة من الأجانب.

توقفت الاشتباكات بالفعل في 11/6/1970 بعد اجتماع عقده الملك حسين وياسر عرفات.. وبادر الملك حسين فور انتهاء الاجتماع إلى تسريح قائد الجيش ناصر بن جميل، وقائد المدرعات زيد بن شاكر، وتولى بنفسه قيادة الجيش، وعين «مشهور حديثة الجازي» رئيساً للأركان و«عبد المنعم الرفاعي» رئيساً للحكومة، وذلك كله من أجل طمأنة ياسر عرفات الذي وضع بين يدي الملك حسين معلومات متينة ومؤكدة عن دور بعض الضباط الكبار في التخطيط للقضاء على المقاومة الفلسطينية في الأردن وذلك بالتنسيق مع دول خارجية، علاوة على أدوارهم في إثارة الاشتباكات المتنقلة بين الجيش والفدائيين.

وفي 23/7/1970 أعلن الرئيس جمال عبد الناصر موافقته على مشروع روجرز، وأصدر أوامره بوقف النار على طول قناة السويس،

ما يعني انتهاء حرب الاستنزاف.. وحذا الملك حسين حذوه، وتعهد في 1970/ 7/ 26 بوقف الأعمال القتالية ضد إسرائيل.

وقد وجد ياسر عرفات نفسه فجأة في وسط عاصفة سياسية وعسكرية معاً، ووقعت القيادة الفلسطينية في بلبلة واضطراب حقيقيين.

وفي ذلك الوضع العصيب قامت الجبهة الشعبية باختطاف خمس طائرات إلى الأردن؛ واحدة فشلت، والثانية فُجرت في القاهرة.. وثلاث حطت في مطار «داوسن» بالأردن؛ وجرى تفجيرها.

وفي ظل تلك الأوضاع أعاد الملك حسين الفريق زيد بن شاكر إلى قيادة سلاح المدرعات في 1970/ 8/ 6، وكان ذلك نذيراً بالخطر المقبل..

فلقد اختار الملك حسين الزمان الملائم تماماً لحسم ازدواجية السلطة في الأردن لمصلحته.. لحظة افتراق المقاومة عن جمال عبد الناصر.

وانزلقت الأوضاع وأدت إلى انفجار القتال في مخيمات عمان في 1970/ 8/ 31.. وازدادت الأمور سوءاً مع تعرض موكب الملك حسين لإطلاق النار قرب مطار عمان في 1970/ 9/ 1.

وأصبح الأمر جلياً أن المهادنة والمعايشة بين «الدولة» و«الثورة» لم تعد ممكنة، خاصة أن الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة كانتا تشجعان الملك حسين وضباط جيشه على القيام بعملية

عسكرية ضد المقاومة.

وما إن حصل الملك حسين على وعد من إسرائيل بحماية نظامه في حال وقوع أي تدخل خارجي من العراق أو سورية مثلاً، حتى كان يحزم أمره ويقدم علانية على ما كان قد خطط له في السر.

وكانت المعركة الحاسمة في 1970/ 9/ 16؛ وذلك عندما أعلن الملك حسين تشكيل حكومة عسكرية برئاسة اللواء محمد داود، وتعيين حابس المجالي قائداً أعلى للقوات المسلحة، وزيد بن شاكر نائباً لرئيس الأركان.. وعلى الفور أعلنت الحكومة العسكرية الجديدة الأحكام العرفية في الأردن كله.

وفي 1970/ 9/ 17 اقتحم اللواء 60 المدرع مدينة عمان، وشرع في قصف مخيمي الوحدات والحسين.. وهكذا بدأت معركة طاحنة استمرت اثني عشر يوماً، وانتهت بالاتفاق على خروج منظمات المقاومة من العاصمة عمان وضواحيها.. وقد سقط في هذه المعركة نحو 3440 قتيلا بينهم نحو 1000 فدائي، فضلا عن نحو 18 ألف جريح.

.. وبينما كانت الاستخبارات العسكرية الأردنية تعتقل الفدائيين وقادتهم من أمثال صلاح خلف (أبو إياد) وبهجت أبو غربية وإبراهيم بكر وفاروق القدومي (أبو اللطف) وتسعى للعثور على ياسر عرفات، إذ به يظهر في القاهرة إلى جانب الرئيس جمال عبد

الناصر الذي كان دعا في 1970/ 9/ 22 إلى قمة عربية استثنائية لبحث الأوضاع في الأردن.

وفي القاهرة قام الملك السعودي فيصل بن عبد العزيز والرئيس جمال عبد الناصر بوساطة أدت إلى عقد اجتماع بين ياسر عرفات والملك حسين لمعالجة ذيول المعركة التي صار اسمها منذ ذلك الوقت (أيلول الأسود).. ومع أن ياسر عرفات اتفق مع الملك حسين على بقاء بعض مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في عمان، والإبقاء على بعض القواعد العسكرية في شمال الأردن، إلا أن وفاة الرئيس جمال عبد الناصر في 1970/ 9/ 28 أتاحت للملك حسين أن يطبق الاتفاق كما أراد، فأُخليت عمان من أي وجود فدائي، وبدأت حملة اعتقالات طالت كل من كانت له علاقة بالمنظمات الفدائية.

وفي 1970/ 10/ 28، وبعد استقالة الزعيم محمد داود ولجوئه إلى القاهرة، جرى تأليف حكومة جديدة برئاسة وصفي التل المعادي للفدائيين الذي تابع حملة الاعتقالات في صفوف الفلسطينيين في الأردن.

وفي 1971/ 3/ 30 طوّق الجيش الأردني، بأوامر مباشرة من وصفي التل، منطقة جرش وأحراش عجلون في شمال الأردن، وراح يطلق النار بكثافة على قواعد الفدائيين.

وقد أدرك ياسر عرفات أنه بات بلا حماية، خاصة بعد تلك

التحولات التي وقعت في سورية والتي أوصلت اللواء حافظ الأسد إلى السلطة.

ومع ذلك خاض الفدائيون المعركة الأخيرة للبقاء في شمال الأردن في 1971/ 7/ 14 والتي قادها أبو علي إياد (وليد أحمد نمر الحسين) واستشهد فيها، ولم تُعرف تماماً كيفية استشهاده.. وقد أسفرت نتيجة هذه المعارك عن خروج المقاومة الفلسطينية من الأردن كله، وبدأت بذلك مرحلة جديدة من تاريخ الثورة الفلسطينية دشنها ياسر عرفات بندائه المشهور:

يا سارية، الجبل، الجبل..

فتدفق الفدائيون على جبل الشيخ ومنطقة العرقوب في لبنان.

لم أنس بالمطلق – وأظنك كذلك – بل أنا متأكد جداً بأنك لم تنس ما حدث في حينه من مصائب الأمور.. فما زالت الذكرى الأليمة لتلك الأيام العصيبة عالقة في ذهني ونفسي.. تماماً كما هو الحال بالنسبة لذهنك وقلبك.

كان قد استشهد من الرفاق العشرات بل المئات.. بل الآلاف خلال تلك المعارك الطاحنة التي دارت بيننا وبين قوات الجيش الأردني.. والذي كان يهاجمنا بضراوة وشراسة ووحشية بدون أي رحمة أو شفقة أو إنسانية.

.. فمنذ البداية؛ كانت كفة الصراع في المعارك ترجح لصالح قوات

الجيش الأردني الذي كان يمتلك أحدث الأسلحة والعتاد الحربي ووسائل النقل الحربية الحديثة..

كان تجمع بقايا قوات المقاومة يتركز في أحراش «جرش» و«عجلون» كما كانت تنص عليه بنود اتفاقية الهدنة بعد انتهاء حرب المدن والمخيمات الفلسطينية في شتى أرجاء الأردن.

ولكن قوات الجيش الأردني - وحسب خطة لئيمة مبيتة - لم تلبث أن أخلت بكل بنود اتفاقية الهدنة وقامت بمهاجمة بقايا قوات المقاومة الفلسطينية التي كانت تخيم وتعسكر في أحراش «جرش» و«عجلون».. وكان علينا أن نقوم بالدفاع المستميت عن أنفسنا بكل ما هو متاح لدينا من بقايا إمكانيات وبقايا أسلحة خفيفة شخصية متواضعة.. فكانت الغلبة بالطبع لصالح قوات الجيش الأردني التي كانت تهاجمنا بضراوة من جميع الجهات وبأعداد غفيرة.. الدبابات والمجنزرات وناقلات الجند والمدفعية بعيدة وقصيرة المدى المختلفة.

كان الهدف هو القضاء تماماً على البقية الباقية من رجال المقاومة الفلسطينية.. وكاد أن يتحقق ذلك بالفعل.. فلقد استشهد العشرات بل المئات.. وتم أسر الأعداد الغفيرة من رجالنا.. كما أصيب المئات بالإصابات القاتلة.. ولم يتم نقل أحد منهم إلى المشافي الأردنية.. فلقد كان المصابون من رجال المقاومة ينزفون دماً حتى الموت.. وهذا ما كان يهدف إليه الجيش الأردني وذلك حسب الأوامر العليا..

لم يتردد الكثيرون منا في تسليم أنفسهم لقوات العدو الصهيوني المرابطين غرب النهر هرباً من الموت الزؤام وذلك بعد أن عبروا الحدود نحو فلسطين المحتلة.. في محاولات يائسة للهرب من جحيم نيران وحمم الموت التي كانت تلاحقهم من قوات الجيش الأردني المعربد.

القرار

واستجابة لياسر عرفات بندائه المشهور:
يا سارية، الجبل، الجبل..
تدفق الفدائيون على جبل الشيخ ومنطقة العرقوب في لبنان.
وكان القرار يومها بالنسبة لي ولك مع مجموعة من رفاق السلاح.. هو أن نتوجه جميعاً إلى جنوب لبنان عن طريق سوريا لمحاولة النجاة من الموت.. رغم صعوبة الوصول إلى هناك وطول المسافة بين مواقعنا في شمال الأردن وهدف الوصول في جنوب لبنان.
وما زلت أذكر - وأنت كذلك - ذلك المشهد الذي كان يومها؛ عندما كنا نتنقل من مكان إلى آخر بين الوديان والجبال وأنت تقوم بحمل «فلسطين».. «فلسطين الطفلة» فوق كتفيك وعلى رقبتك بينما كنت تقوم بمحاولات يائسة لمساعدة الأم.. الفتاة الكبيرة ذات الزيّ العسكري المميز لرجال المقاومة الفلسطينية والتي كانت قد أصيبت إصابة حرجة في المعارك الأخيرة التي دارت بيننا كرجال

مقاومة وقوات الجيش الأردني المدججة بالسلاح والعتاد ومحاصرتنا في أحراش «جرش» و«عجلون» لمحاولة القضاء التام علينا.

كم كانت الصعوبة بمكان علينا ونحن رجال مقاومة كنا قد تدربنا وبشكل جيد على التحمل والصبر والقوة.. فكانت قوانا تخور واحداً تلو الآخر.. فيسقط الرجال تلو الرجال خلال تلك الرحلة الشاقة المضنية بين الدروب الشائكة بين الجبال والوديان؛ فيحاول الرفاق مساعدة بعضهم البعض بقدر ما يستطيعون دون جدوى.. فقد أصاب التعب الجميع بلا استثناء واستولى عليهم الإرهاق الشديد والجوع والعطش.. ولم يستطع الكثيرون منا متابعة السير إلا بالكاد.. فكانوا يضطرون في النهاية لترك الرفيق تلو الرفيق بعد أن يقوموا بوداعه بقبلة طويلة ودمعة حارقة.

كان الأمر شاقاً جداً بالنسبة لنا كرجال مقاومة مدربين وذوي مهارات وقدرات عالية على قوة التحمل.. ولكن الأمر بالنسبة لك كان أكثر صعوبة.. كما هو الحال بالنسبة للفتاة ذات الزي العسكري المميز.

بالكاد.. وبصعوبة جمة كنت تستطيع أن تنقل قدميك بخطوات وئيدة إلى الأمام.. ورغم ذلك كنت تصر على أن تحمل «فلسطين».. الطفلة «فلسطين».. بين يديك تارة.. وعلى كتفيك حيناً.. وفوق عنقك مرة ثالثة.. بينما كنت تحاول وبجهد عظيم مساعدة الأم..

الجريحة.. والتي كانت تكابد مشقة السير في الطرق الوعرة بينما كانت الدماء تنزف منها بغزارة.

.. لم تكن الجراح التي كانت تنزف الدماء.. والتي أصبت بها بدوري أثناء المعركة الأخيرة؛ لم تكن تمنعني من محاولة الصمود والتحمل بقدر ما تبقى بي من قوة.. ورغم ذلك؛ فإنني كنت أحاول مساعدتك في تلك المهمة الشاقة العويصة التي كنت تقوم بها.. نحو الطفلة الصغيرة والأم المصابة.. ولكنك كنت ترفض بشكل قاطع كل عروض المساعدة التي كنت أقدمها.. كنت ترفض ذلك بإباء وشمم وكبرياء غريب..

.. تحاملت الفتاة الكبيرة على نفسها كثيراً.. رغم ما بها من جراح ونزف دماء منهمرة.. ورغم المحاولات المستمرة التي كنا نقوم بها لتضميد جراحاتها المختلفة على مدار الوقت بإمكانياتنا المتواضعة.

الطريق وعرة.. مليئة بالأشواك والحفر والحجارة.. كان الأمر في منتهى الصعوبة بالنسبة لنا كرجال مقاومة مدربين.. فما بالك بالنسبة لك.. ولطفلة صغيرة.. ولفتاة رقيقة مثل الأم..

الفتاة ذات الزيّ العسكري المميز لم يتبق لديها من قوة أو عزيمة.. ولم تعد تستطيع متابعة السير.. ولم تلبث أن تهاوت ووقعت على الأرض بعد أن أنهكها السير.. وبعد أن نزفت منها الدماء الغزيرة..

سقطت الفتاة الكبيرة على الأرض وهي تصرخ صرخة ألم ووجع

مكتوم.. وما إن تناهت الصرخة إلى مسامعنا.. حتى كنت بدورك تنزل الطفلة الصغيرة من فوق ظهرك إلى الأرض.. ثم تندفع بقوة وسرعة نحو الفتاة وأنت تصرخ بجنون بصوت مدوٍ مجلجل:

-«جميلة»....

بدورك.. فقد جثوت على ركبتيك إلى جانب الفتاة «جميلة» التي كانت ترقد على الأرض بلا حراك.. فلم يعد بها أدنى قوة لمتابعة السير الشاق.

ما زلت أذكر كيف أنك ألقيت بنفسك إلى جانبها وأنت تبكي بحرقة كطفل صغير.. ولم تلبث الطفلة الصغيرة الجميلة «فلسطين» أن اندفعت نحو أمها وهي تبكي بمرارة وحرقة.. بينما كانت تصرخ بصوت مكلوم خنقته العبرات:

-ماما .. ماما .. ماما ..

رحت بدورك تمسك بيد الفتاة وتقبلها بجنون.. وانفلتت منك صرخة مدوية تجلجل في أرجاء الأرض وجنبات السماء:

-جميلة .. حبيبتي!

.. لم يفاجأ الجميع بالأمر.. فأنا والكل كنا نحس ونشعر بذلك الحب العميق الذي كان يعربد في قلوبكما..

.. رحت تصرخ بجنون وأنت تمسك بيد جميلة:

-جميلة .. حبيبتي.. أرجوكِ لا تتركيني وحيداً.. يجب أن تتابعي

المشوار معي حتى النهاية.. هكذا اتفقنا من البداية.. علينا أن نكمل المشوار معا كما اتفقنا.. وكما تعاهدنا عليه.. حقاً فإن الطريق طويل.. والدرب عسير.. مليء بالأشواك والصعاب.. ولكن يجب عليك أن تنهضي.. أن تستمري.. حتى نكمل المشوار معا .. كما اتفقنا.. وكما تعاهدنا عليه... هيا.. هيا انهضي.. هيا انهضي كي نكمل المشوار معا .. هيا.. هيا..

الفتاة من جانبها حاولت النهوض من مكانها عن الأرض.. استندت بكلتا يديها الواهيتين في محاولة يائسة منها لمحاولة النهوض.. رحت تمد كلتا يديك لمساعدتها على النهوض.. كذلك فعلت الطفلة الجميلة لمساعدة أمها.. فعلت الفتاة كل ما بوسعها.. وأنت كذلك.. ولكنها لم تقوَ على الوقوف.. فلقد أفلتت من بين يديك ثم تهاوت إلى الأرض مرة أخرى بلا حراك..

صرخت الطفلة صرخة مدوية.. وراحت تندفع نحو أمها من جديد:

-ماما.. أرجوكِ يا ماما.. لا تتركيني هنا.. لا تتركيني وحيدة.. أحبك يا أمي.. أريدك يا أمي.. أرجوكِ يا أمي.. لا تتخلي عني.. لا تتركيني.. ماما..

.. فتحت جميلة عينيها بهدوء ووهن؛ نظرت ناحية ابنتها الطفلة الجميلة «فلسطين».. مدت كلتا يديها بما تبقى لها من بقايا قوة..

ضمتها إلى صدرها.. إلى قلبها.. راحت تقبلها بحنو وعطف وأمومة طاغية..

راحت الطفلة تتمرغ على صدر أمها ووجهها.. راحت تمطرها بالقبلات المبللة بالدموع الغزيرة..

.. التفتت الأم ناحيتك بهدوء.. وبعيون مكدودة متورمة.. هتفت برقة وعذوبة وبصوت واهٍ وكأنه يأتي من بين القبور أو من وراء الجبال:

-أحبك.. للأبد.. يا حبيبي.. وسامحني أني لم أفِ بالوعود التي كنا قد اتفقنا عليها والعهود التي تعاهدنا عليها.. وها أنا أتركك.. تركتك مرغمة.. رغم إرادتي.. ولم أستطع أن أكمل المشوار معك.. سأتركك جسداً.. ولكني لن أتركك روحاً وقلبا.. فقلبي معك.. وروحي معك..

.. كأنك كنت تسمع هذه الحروف.. هذه الكلمات.. هذه العبارة (أحبك يا حبيبي) لأول مرة في حياتك.. فلقد أصابك ما يشبه الصمم.. العمى.. الخرس.. فلم تعد قادراً على سماع شيء.. رؤية شيء.. النطق بحرف.. فيبدو أن للحروف والكلمات في مثل هذا الموقف طعمًا آخر.. مذاقًا آخر.. نكهة أخرى مختلفة..

.. كان الطوفان الجامح فجأة.. طوفان المشاعر والأحاسيس التي طغت عليك بشكل جنوني غريب.. رأيتك - كما رآك الجميع -

تندفع بقوة غريبة نحو الفتاة المسجاة على الأرض.. رحت تحتضنها.. تقبلها.. تبكي بدموع حارقة لم أرَ مثلها في حياتي.. لم تنطق سوى بحرف.. كلمة.. ولكنها دوت في أرجاء أنفسنا.. وأنحاء أرواحنا كقرع الطبول:

-لاا!!!!

كانت هذه آخر حروف تنطق بها.. في ذات الوقت الذي كانت فيها الفتاة ذات الزي العسكري المميز تنطق بآخر حروفها بصعوبة بالغة:

-«فلسطين».. أمانة.. في رقبتك...

الوصول لجنوب لبنان

.. ولعلك ما زلت تذكر – وبشكل جيد – ما حدث بعد ذلك.. عند وصولنا إلى الحدود اللبنانية.. وإلى جنوب لبنان على وجه التحديد.. فقد كنا جميعا نعاني الإرهاق والتعب.. الجوع والعطش الذي وصل إلى حد الموت ببعض رجالنا من رجال المقاومة.. خاصة من أولئك الذين كانوا قد أصيبوا بإصابات خطيرة خلال المعارك الأخيرة التي دارت بيننا وبين الجيش الأردني في أحراش كلٍ من «جرش» و«عجلون».

.. كان في استقبالنا عند الوصول لمنطقة جنوب لبنان بعض رجال الصليب الأحمر والهلال الأحمر اللبناني.. فقاموا بتقديم بعض المساعدات المتواضعة العاجلة لنا من غذاء ودواء وبعض الأغطية والخيام.. وقاموا بنقل بعض المصابين – خاصة من ذوي الإصابات الحرجة – إلى المشافي اللبنانية القريبة.

.. راح بعض الرفاق – ممن كانوا لا يزالون يتمتعون ببعض القوة

– يبحثون في المكان بين الجبال والوديان عن أماكن يمكن أن تلائم الإقامة فيها.. وإقامة المخيمات اللازمة لإيواء رجال المقاومة.. وقد تمكنوا بالفعل من العثور على بعض المواقع التي تصلح لإقامة المخيم.

أنا متأكد بأنك ما زلت تذكر وبشكل جيد تلك الحالة المزرية التي كان عليها العديد من رجالنا.. وذلك بعد طول العناء الشاق إبان تلك الرحلة المضنية التي كانت حتى مرحلة الوصول إلى هناك.

.. وبدورك.. فقد كانت حالتك الصحية والنفسية في منتهى السوء.. فلقد كنت متعباً للغاية ومرهقاً بشكل لا يمكن وصفه.. فألقيت بنفسك إلى أقرب مكان وصلنا إليه داخل الحدود اللبنانية.. فلقد كان وضعك الصحي والنفسي لا يسمحان لك باختيار الموقع الملائم.. فلم يعد باستطاعتك الإتيان بأي حركة كانت أو التفوه بحرف.

ولكن رغم كل هذا وذاك؛ فإنك كنت تقبض بيد من فولاذ.. وبكل ما تبقى بك من قوة على ذراع الطفلة المرهقة المتعبة «فلسطين».. والتي كانت بدورها في أسوأ حالاتها.. والتي كانت تعاني شبه إغماءة.. فلقد كنت تشعر بمدى عظم المسؤولية التي ألقيت على عاتقك.. والأمانة التي وضعتها الأم «جميلة» في رقبتك قبل أن تغادر الحياة إلى الأبد وهي تترك وحيدتها بين يديك.. وتقول لك بآخر ما تملك من أنفاس وحروف وكلمات:

«فلسطين» أمانة في رقبتك ..

.. وراحت هذه العبارة تتردد في أذنيك ودواخلك بعنف وقوة وصخب وبشكل سريع متتابع:

«فلسطين» أمانة في رقبتك ... «فلسطين» أمانة في رقبتك ..

.. قام بعض الأطباء من أطباء الصليب الأحمر والهلال الأحمر اللبناني بمعاينة الحالات العديدة لرجال المقاومة المصابين والمرهقين.. وأمروا بنقل العديد منهم إلى المشافي اللبنانية القريبة.. ونقل الحالات الخطيرة إلى مشافي بيروت.. ووصفوا الأدوية والعلاجات المستعجلة اللازمة لبعضهم.

عندما قمنا بعرض حالتك على أولئك الأطباء الميدانيين.. وبعد الكشف عليك بشكل سريع وأدوات بسيطة متوفرة لديهم.. أوصوا لك ببعض العلاجات والأدوية والسوائل المتواضعة التي قاموا بصرف المتوفر منها لديهم.. كما أوصوا بالراحة التامة.

العديد من أبناء المخيمات الفلسطينية المقامة في لبنان؛ كانوا يتقاطرون إلى المكان؛ ويندفعون نحو أماكن تواجدنا في خيام الموقع العشوائي.. ويقدمون لنا شيئاً من الأطعمة والأغذية والأغطية المختلفة.

كان اللقاء بيننا وبينهم حارا وملتهباً.. من عناق وقبلات متبادلة ودموع حارقة تجسد المأساة بكل أبعادها.. وراح بعضهم يجلسون

معنا في حلقات عديدة على الأرض وهم يشاطروننا الحديث وتناول وجبات الطعام المختلفة التي كانوا قد أحضروها معهم.. كما تم التعارف بيننا وبينهم؛ وكانت أكثر من مفاجأة عند عثور بعض المقاومين في المخيم على بعض أقاربهم وأصدقائهم القدامى.

رويداً.. رويداً كانت الحياة تدب من جديد في المخيم.. وفي أنفسنا وأرواحنا وأجسامنا.. كما كان هو الحال بالنسبة لك أيضاً.

فلقد بدأت بدورك تستوعب الأمر بالتدريج؛ وبدأت بالبحث عن الأقلام والأوراق.. وبدأت في تفريغ شحنات الألم والمعاناة والكبت المختزن على شكل حروف وكلمات ناريه ملتهبة.. ورحت تتحفنا بها بين الفينة والأخرى.

.. بدأنا في التدريبات العسكرية المختلفة من جديد.. وأخذنا باستعادة نشاطاتنا المختلفة واستعادة لياقتنا البدنية المفقودة.. محاولين تجاوز الأزمة النفسية العصيبة الحادة التي كنا قد أصبنا بها.

.. وعاد المشهد المميز للظهور في المخيم من جديد.. ذلك المشهد الرائع بملازمة الطفلة الجميلة لك على مدار الوقت.. فكان المشهد يدخل البهجة والسرور على قلوب الجميع.. فهل تراك ما زلت تذكر ذلك المشهد؟ وهل تراك ما زلت تذكر كم كان يحلو للجميع أن يطلقوا عليك لقب «أبو فلسطين» بداعٍ وبدون داع؟! في مناسبة وفي غير مناسبة.. وكان البعض يطلقون عليك لقب «أبو فلتين»

وكانوا يفعلون ذلك على سبيل المناكفة والمشاكسة والمزاح البريء.

هل تذكر كم عقدنا من المهرجانات الترفيهية والأدبية المتواضعة على مدار الوقت؟ والتي كانت تتخللها الفقرات الترفيهية.. ولكن وبلا شك فإن عماد تلك المهرجانات والفقرات كانت تلك الأشعار والأناشيد والأهازيج التي كنت بدورك تقوم بنظمها وإلقائها على مسامعنا فتثير فينا مشاعر القوة والسعادة والنشوة والحبور وشيئاً من استعادة الثقة بالنفس..

مما كان يزيد من جرعات السعادة والنشوة والحماسة لدينا؛ هو تلك الأناشيد والأغاني والأهازيج البسيطة؛ التي كنت تقوم بنظمها؛ وكانت تقوم بإلقائها على مسامعنا الطفلة الجميلة «فلسطين»، التي كانت قد قاربت السابعة من عمرها.. والتي كانت تتميز بذكاء خارق وببراعة في فن الإلقاء والزيّ العسكري المميز لرجال المقاومة.. وبلثغتها الحلوة المحببة.

يبدو وبوضوح أنك كنت تتعمد أن تضع حرف السين والفاء بين ثنايا حروف وكلمات قصائدك الرائعة.. التي كنت تنظمها خصيصاً للطفلة.. كما أنك كنت تكثر من ذكر كلمة (فلسطين) من خلال الأناشيد والأغاني والأهازيج التي كانت تلقيها الطفلة على مسامعنا.. وأنت تقصد بالطبع ذلك الأمر وتتعمده كي تنطقه الطفلة بطريقة جميلة مميزة ورائعة.. فتردد كلمة «فلثتين» عدة مرات

بدلا من كلمة «فلسطين».

اشتد عود رجال المقاومة الذين كانوا يعسكرون في المخيم؛ كما انضم إليهم فيما بعد العديد من الشباب والرجال الذين وصلوا من شمال الأردن أو من داخل لبنان نفسه أو من الخارج.

.. وكان لا بد من إعادة تنظيم الصفوف وترتيب الأوراق من جديد.. وإعادة هيكلة المقاومة وبشكل يسمح لها بمعاودة مقارعة العدو الصهيوني من جديد انطلاقاً من قواعدنا الجديدة في جنوب لبنان.

.. والحال كذلك؛ لم يكن أمامي وأمام الجميع سوى أن نطلب منك – كحامل فكر وقلم ثوري مميز –أن تنتقل من جنوب لبنان إلى بيروت العاصمة اللبنانية.. التي هي مركز الثقافة ومركز الإشعاع الأدبي والإعلامي والصحفي.. كي تسمع صوتنا لكل العرب وكل الأجانب عبر قلمك الناري من هناك.. والنشر في شتى الصحف والمجلات، وشتى وسائل الإعلام المسموعة والمرئية العربية منها أو الأجنبية والعالمية.

.. ها أنا أراك تتململ في رقدتك من جديد وأنت تتذكر كم كان من الصعب؛ بل من العسير عليّ وعلى الرفاق أن نقنعك بضرورة المغادرة والانتقال إلى بيروت؛ فلقد كنت بدورك متشبثاً بوجهة نظرك وبرأيك بضرورة البقاء بيننا حفاظاً على تلك الصداقة والألفة

التي كانت بينك وبين الجميع.. وذلك بدءاً من البدايات الأولى لانطلاق حركات المقاومة.

.. بكل ما كنا نملك من وسائل إقناع.. ومن جهد عظيم ووسائل إقناع مختلفة؛ استطعنا – بالكاد وبعد لأي شديد – أن نقنعك بأن انتقالك لبيروت فيه الخدمة الأجل والأوسع والأكمل لخدمة قضيتنا ولحركتنا المقاومة.

هنا بيروت

ها أنا أراك تذرف الدموع بصمت وأنت تذكر كم كان الوداع بيننا حاراً.. وقمنا في حينه بعمل احتفالية رائعة كحفل وداع لك.

.. صمم الجميع على أن تلقي على مسامعنا قصيدة شعرية جديدة تتناسب وهذه المناسبة؛ وقد كان..

.. لقد قمت من جانبك بنظم قصيدة شعرية نارية ملتهبة وقمت بإلقائها على مسامعنا بنبرة صوتك المختنق من بين العبرات الكثيفة.. واختلطت العبارات بالعبرات.. وبكى الجميع تأثراً بحرفك وكلمك.. وتأثرنا بدموعك؛ فرحنا جميعاً نشاركك البكاء والدموع.

.. لقد قمت بإعداد مفاجأة أخرى لنا؛ على شكل أهزوجة رائعة الحرف والكلم.. راحت الطفلة الجميلة «فلسطين» – التي لم تتجاوز السابعة من عمرها – تلقيها على مسامعنا بحذق واقتدار.. فكان لها التأثير الرهيب على أنفسنا وأرواحنا ومشاعرنا..

مما زاد من لهيب الموقف.. وزادت الدموع دموع.. هو تأثر الجميع

بتلك الكلمات التي قمت بنظمها للطفلة الجميلة خصيصاً لهذه المناسبة.. والتي راحت الطفلة تلقيها على مسامعنا بروعة إلقاء مميز..

كان العناق الحار والمصافحة الملتهبة والقبلات الحارقة ختام ذلك الحفل العظيم.. وطالت لحظات الوداع.. والدموع التي حلت محل الحروف والكلمات.

.. في النهاية.. كنت تقوم بمغادرة المكان بصمت وهدوء.. ولم تكن تحمل في يدك سوى قلم وورقة.. وباليد الأخرى طفلة.. ولم يكن يرافقك في تلك اللحظات الأخيرة من أحد سواي.. فأنت لم تسمح لأحد غيري بمرافقتك في اللحظات الأخيرة..

كان المشهد الصامت (الصاخب) أجل من أن يوصف.. وأسمى من أن يترجم.. فالصمت كان سيد الموقف من الظاهر.. ولكن الصخب كان هو سيد الموقف من الباطن.

كان الجميع يتابعونك وأنت تبتعد عنهم رويداً رويداً بينما كنت تمسك الطفلة بيدك وأنا أسير إلى جانبك.. راحوا يلوحون لك بأيديهم.. رحت بدورك تلتفت نحوهم بين الفينة والأخرى.. وتلوح لهم بيد مكدودة.. ودموع غزيرة..

فجأة.. كنت تنفلت من أمامي.. وأنت تحاول الابتعاد عني بقدر المستطاع.. يبدو أنك قد فعلت ذلك خشية أن تنهار في اللحظات الأخيرة وتتراجع عن قرار المغادرة.. أو أنك خشيت أن تنهار

وتقع على الأرض مغمًى عليك عندما أقوم بوداعك الوداع الأخير المميز.. فآثرت الفرار.. ولم تلتفت نحوى.. إلى أن غبت عن ناظريّ ونواظر الجميع في النهاية.. وكنت في طريقك الطويل الطويل... نحو بيروت..

.. ولا بد أنك ما زلت تذكر جيداً أمر ما كان بعد ذلك..

ففي بيروت كان اللقاء.. وكان اللقاء مميزاً رائعاً.. فثمة مجموعة من الأدباء والكتاب والشعراء والمهتمين الفلسطينيين كانوا قد سبقوك في التواجد هناك؛ وثمة سيرة ذاتية عطرة لك كانت قد سبقتك إلى آذان الجميع وأذهانهم.

كان هناك أيضاً لفيف من رجال المقاومة من الرفاق – الذين كانوا قد فروا من الموت الزؤام الذي كان يترصدهم في الأردن – وكانوا قد وصلوا إلى بيروت والعديد من المخيمات الفلسطينية المتفرقة في لبنان، والذين انضم إليهم مجموعة من الأدباء والشعراء والكتاب الفلسطينيين واللبنانيين.

كان استقبالاً رائعاً ولقاءً مميزاً واحتفالاً مهيباً.. وبحضور لفيف من رجال الصحافة ووسائل الإعلام المختلفة.

بدورك؛ فلقد أتحفت يومها الحضور بقصيدة شعرية جديدة أكثر من رائعة.. وكانت القصيدة بعنوان:

«جميلة»..

حروف وكلمات وعبارات القصيدة كانت تنبض بالحياة.. والتي كنت قد أفرغت فيها كل شحناتك الشخصية والنفسية الدفينة المكبوتة.. الممزوجة بالدموع والآهات.. فاختلط الحب الشخصي بحب الوطن.. واختلطت آلامك بآلام الوطن.. فأنشدت للحبيبة الشهيدة.. وأنشدت للحبية فلسطين الوطن.

التصفيق المدوي الحاد من قبل الحضور كان سيد الموقف في مقاطعاتك المتكررة عن متابعة إلقاء القصيدة..

.. طلب منك الحضور وبإلحاح شديد المزيد والمزيد من شعر الحياة.. حياة الشعر.. ولم يكن بوسعك سوى أن تنهض من مجلسك.

.. وقمت بمفاجأة الحضور بارتجال قصيدة جديدة نارية امتزجت فيها كل المشاعر والخواطر والأحاسيس.. فسيطرت الحروف والكلمات على مشاعر وخواطر الجميع..

كانت قصيدة مرتجلة أشبه بالأهزوجة.. أو الأنشودة.. والتي ما فتئ الجميع أن أخذوا بترديد كلماتها من ورائك.. فهزهم الشوق والحنين للوطن.. خاصة أنك قد اخترت لها أن تكون بعنوان.. «فلسطين».

سادت موجة من الحبور والنشوة الممتزجة بالحماسة.. ولم يلبث جميع الحضور أن طالبوك بإعادة إلقاء القصيدة مرة أخرى.. ولم يكن بوسعك سوى الاستجابة لمطالبهم المتكررة وإلحاحهم المتتابع.

.. وفي ختام المهرجان.. كانت مفاجأة الحفل وبحق.. تلك القنبلة المفاجئة التي كنت قد أعددتها على شكل حروف وكلمات تلك القصيدة الرائعة المؤثرة التي كانت بعنوان «أمي الشهيدة».. والتي قامت بإلقائها على مسامع الحضور الطفلة الصغيرة الجميلة ذات الزيّ العسكريّ المميز لرجال المقاومة الفلسطينية.

كانت القصيدة التي ألقتها الطفلة على مسامع الجميع في الحفل الكبير المهيب في منتهى الروعة والتأثير الحسي والنفسي والعاطفي والوطني الحماسي.. والتي كانت تحكي حكاية أمها الشهيدة.. وكم كان تأثر الجميع بكل مقطع من مقاطع القصيدة.. فصفق لها الجميع تصفيقاً حاراً متواصلاً وهم يقاطعونها عدة مرات.. حقاً بأن الجميع قد صفقوا للطفلة كثيراً.. ولكن الدموع انهمرت من أعينهم أكثر.

وكنوع من التغيير والتنويع.. وتخفيف وطأة الحرارة التي استبدت بالجميع ولتلطيف الأجواء بشكل ما؛ رحت بدورك تدون على ورقة صغيرة – وبسرعة غريبة – حروف وكلمات قصيدة جديدة.. أشبه ما تكون بالأهزوجة أو الأغنية الخفيفة والتي تتناسب وعمر الطفلة.. وتتلاءم مع المناخ العام للاحتفال.

وما هي سوى دقائق قليلة؛ حتى كانت الأنشودة جاهزة.. فقمت بدورك بعرضها على الطفلة التي جلست إلى جوارك لالتقاط أنفاسها بعد أن انتهت تواً من قيامها بإلقاء قصيدتها السابقة.. «أمي

الشهيدة».. ورحت تقرأ الحروف والكلمات والعبارات الجديدة على مسامعها بما يشبه الهمس؛ فاستوعبتها الطفلة بسرعة وراحت تستعد ومن جديد لإلقاء الأنشودة الجديدة.

.. التصفيق الحار والشديد المتواصل من الجميع وبحرارة لاستقبال الطفلة من جديد.. كان فيه الفرصة المناسبة لها لمعاودة قراءة ومراجعة كلمات الأغنية والأنشودة مرة أخرى..

.. وبدأت المعزوفة الملائكية تصدح في الانطلاق من حنجرة الطفلة الجميلة.. وكانت القصيدة بعنوان «فلسطين أنا.. وأنا فلسطين»..

وكم كان الأمر رائعاً وممتعاً خاصة عندما كانت تتناهى حروف وكلمات الأنشودة الأغنية لمسامع الجميع.. فأثارت فيهم موجة من الحماسة الممزوجة بالحبور والسرور والسعادة والضحكات المدوية والتصفيق الحاد.. خاصة تلك الطريقة الجميلة الفريدة المحببة التي كانت تنطق فيها الطفلة تلك الحروف بلثغتها الحلوة الجميلة.. خاصة عندما نطقت أول حروف القصيدة بقولها:

«فلثتين أنا.. وأنا فلثتين»..

والتي تقصد بها بالطبع.. «فلسطين أنا.. وأنا فلسطين»..

فكم حلا وراق للجميع أن يطلبوا من الطفلة أن تعيد نطق عنوان القصيدة عدة مرات وهم يشعرون بالغبطة والسعادة..

ولم يلبث أن اندفع العديد من الحاضرين نحو المنصة التي كانت

تقف عليها الطفلة وهي تلقي بكلمات الأنشودة.. وقام أحدهم بحمل الطفلة فوق كتفيه.. وراح يدور بها في المكان وهي ما زالت تردد الكلمات والعبارات.. وتلوح بكلتا يديها بقوة وإصرار.. بينما نهض الجميع من أماكن جلوسهم على المقاعد.. وراحوا يدورون من حول الطفلة ويلاحقونها في تحركاتها من مكان لآخر وهم يرددون من ورائها الكلمات والعبارات النارية بسعادة غريبة.. بينما كانوا يصفقون بأيديهم بقوة وحرارة..

.. انتهت كلمات وعبارات الأنشودة.. ولكن لم تتوقف الطفلة عن النطق بقوة وسعادة وهي تكرر الأنشودة من جديد.. ولم يتوقف الحضور عن الترديد من ورائها والتصفيق الحار والرقص الذي استبد بالجميع بما يشبه «الدبكة الشعبية»..

ولا بد أنك ما زلت تذكر وبشكل جيد.. كيف أن الأمور لم تقتصر على ذلك فحسب.. بل تطورت الأمور كثيراً وذلك عندما اندفع بعض الرجال والشباب نحوك.. وانبرى أحدهم – من ذوي العضلات المفتولة من رجال المقاومة الأشداء – وقام بحملك فوق كتفيه وراح يدور بك في المكان ومن حوله كان يلتف ويدور بقية الرفاق والحضور.

ألح عليك الجميع وألحفوا بالطلب لإعادة إلقاء قصيدتك الرائعة: «جميلة» على مسامعهم.. وقصيدة «فلسطين» الحماسية المميزة.. فلم

يكن أمامك من خيار سوى أن تستجيب لمطالبهم الملحة.

ازداد الحبور حبوراً.. وأصبح الجو ملتهباً بالحرارة الممتزجة بالخواطر والمشاعر والأحاسيس.. فأخذ الجميع يدورون من حولك ومن حول الطفلة وأنتما تتبادلان إلقاء كلمات الأناشيد والأهازيج والأغاني الوطنية.. تارة يقترب الرجل الذي كان يحمل الطفلة من الشاب الذي كان يحملك على كتفيه.. فيصبحان وجهاً لوجه.. وأنت والطفلة تصبحان كذلك.. فتبتسمان.. وتتبادلان الحروف والكلمات والعبارات المتلاحقة التي كان يرددها الجميع من ورائكما.. ومرة أخرى يتباعد الرجلان اللذان كانا يحملانكما فتتباعدان.. ثم يتقاربان ويلتقيان.. فتقتربان وتتقابلان..

.. في حينه.. يبدو أن ذلك المشهد الرائع قد أعاد لك ذكرى ذلك المشهد الموازي له والذي يطابقه ويشابهه كثيراً.. والذي كان قد حدث قبل أكثر من عامين في حينه.. ذلك عندما كنت قد التقيت بـ«جميلة».. أول مرة.. في «الكرامة».. وما دار بينكما من مناظرة ومساجلة شعرية في حينه والتي تشبه تلك المساجلة والمناظرة التي كانت بينك وبين الطفلة لاحقاً.

ها أنت تتحرك وتتململ في رقدتك بشكل غريب.. يبدو أنك تستعيد شريط الذكريات لما حدث يومها.. عندما كنت قد استعدت تلك الذكرى التي كانت منذ سنوات بينك وبين «جميلة».. أم الطفلة

«فلسطين» ففاضت بك يومها لواعج الذكرى.. ويبدو أن لوعة الذكرى ولوعة الفراق قد طفيا على سطح الذكريات بقوة وعنف.. فاستبدت بك يومها نوبة من البكاء الشديد والتشنج الرهيب.. ويبدو أن التأثر كان بعيد المدى.. فلم تلبث أن أصبت بنوبة بكاء هستيري.. وكدت أن تسقط على الأرض من فوق كتفي الشاب الذي كان يحملك على عاتقيه.. لولا أن امتدت إليك السواعد القوية للرجال والشباب.. فأسندتك... وحالت بينك وبين الوقوع على الأرض.. ولكنها لم تحل بينك وبين الإصابة بحالة إغماء طويلة طويلة..

أول الاشتباكات.. طلقة

.. أعرف بأنك ما زلت تذكر جيداً أن منظمة التحرير الفلسطينية قد بدأت ومنذ عام 1968 فصاعداً إجراء مداهمات من لبنان إلى داخل إسرائيل، وبدأت إسرائيل تقوم بغارات انتقامية ضد لبنان لتشجيع الشعب اللبناني نفسه على التعامل مع الفدائيين.

بعدما تمت مهاجمة طائرة إسرائيلية من قبل مسلحين فلسطينيين في مطار أثينا، قامت إسرائيل بقصف مطار بيروت الدولي للانتقام، ودمرت 13 طائرة مدنية..

وخضعت مخيمات اللاجئين الفلسطينيين للسيطرة الفلسطينية وذلك بعد سلسلة من الاشتباكات في عامي 1968 و1969 بين الجيش اللبناني وقوات الميليشيات الفلسطينية الصاعدة.

وفي عام 1969 كفل اتفاق القاهرة حق اللاجئين في العمل، لتشكيل لجان حكم ذاتي، والانخراط في الكفاح المسلح.. وتولت حركة المقاومة الفلسطينية الإدارة اليومية لمخيمات اللاجئين، وتوفير

الأمن؛ وكذلك الخدمات الصحية والتعليمية والاجتماعية.

ويوم 8 مايو عام 1970، عبر فصيل تابع لمنظمة التحرير، يسمى الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، إلى إسرائيل، وقام بتنفيذ عملية فدائية في حافلة مدرسية في منطقة (أفيفيم).

كانت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية قد خرجت وقواتها من الأردن إلى سوريا وأخيراً لبنان، حيث زادت من المقاومة العابرة للحدود.

وفي عام 1974 جندت فصائل منظمة التحرير الفلسطينية أعضاء جددًا من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين المقامة في بيروت وذلك بالتزامن مع نقل مقراتها إلى بيروت.

لعلك ما زلت تذكر وبشكل جيد أن جنوب لبنان كان يلقب بـ(أرض فتح)، نظراً لهيمنة حركة فتح هناك، والتي ينتمي إليها ياسر عرفات.. مع عمل جيشها الخاص بحُرية في لبنان، فتمكنت منظمة التحرير الفلسطينية من خلق دولة داخل الدولة.

.. بدأت منظمة التحرير الفلسطينية والمنظمات الفلسطينية المسلحة الأخرى سلسلة من عمليات خطف الطائرات، والتي كانت تستهدف رحلات جوية إسرائيلية ودولية، على متنها إسرائيليون ويهود ، وكان التأثير الأكثر عمقاً على لبنان هو زعزعة الاستقرار وزيادة الصراع الطائفي، الذي من شأنه تدهور الأوضاع في نهاية

المطاف إلى حرب أهلية شاملة.

.. وفي رد فعل على عملية ميونيخ عام 1972، قامت إسرائيل بتنفيذ عملية (ينبوع الشباب)، كما سمتها.

فقد وصل أعضاء من قوات النخبة الخاصة الإسرائيلية على متن قارب إلى لبنان، وذلك يوم 9 أبريل عام 1973، وبمساعدة عملاء المخابرات الإسرائيلية، تسللت إلى مقر منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت واغتالت عدداً من قادتها.

وفي عام 1974 غيرت منظمة التحرير الفلسطينية تركيزها ليشمل العناصر السياسية اللازمة لإجراء حوار مع إسرائيل.

أما أولئك الذين أصروا على الحل العسكري؛ فقد انشقوا لتشكيل جبهة الرفض، وأخذ ياسر عرفات الدور القيادي لمنظمة التحرير الفلسطينية.

في أبريل عام 1974؛ قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة، التي كانت قد انفصلت عن منظمة التحرير الفلسطينية، بعملية (الخالصة).

وفي مايو 1974 عبرت الجبهة الديمقراطية مرة أخرى إلى إسرائيل وقامت بتنفيذ عملية (معالوت).

.. ولعلك ما زلت تذكر وبشكل جيد ذلك الصراع المعقد الذي شهد مختلف الفصائل وتغير في التحالفات بين الموارنة والسنة

والشيعة والفلسطينيين والدروز ومجموعات أخرى غير طائفية.

التغيرات التي حدثت في التركيبة السكانية اللبنانية وزيادة مشاعر الحرمان من قبل جماعات عرقية معينة، وكذلك الاشتباكات بين الفلسطينيين والإسرائيليين في جنوب البلاد أسهمت جميعها في اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية.

ابتداءً من مايو عام 1976، قامت إسرائيل بتزويد الميليشيات المارونية، بما في ذلك القوات اللبنانية بقيادة بشير الجميل، بالأسلحة والدبابات والمستشارين العسكريين.. وكانت الحدود بين إسرائيل ولبنان في ذلك الوقت يطلق عليها (السياج جيد).

وفي يونيو 1976 تدخلت سوريا في الحرب الأهلية لدعم الحكومة ذات الغالبية المارونية خوفاً من فقدان الممر التجاري إلى ميناء بيروت.

وبحلول شهر أكتوبر كان يتمركز 40000 جندي سوري داخل لبنان.. وفي العام التالي غيرت سوريا موقفها وبدأت في دعم الفلسطينيين.

.. في يوم 11 مارس 1978؛ أقدم أحد عشر مسلحاً من منظمة التحرير الفلسطينية على إنزال بحري في حيفا، حيث قاموا باختطاف حافلة إسرائيلية بكامل ركابها، مما أسفر عن مقتل من كانوا على متنها فيما يعرف باسم مذبحة الطريق الساحلي.

رداً على ذلك؛ قامت إسرائيل مع 25000 جندي، بشن (عملية الليطاني) في 14 مارس 1978؛ وذلك بهدف احتلال جنوب لبنان، باستثناء مدينة صور.

وكان الهدف هو دفع منظمة التحرير الفلسطينية بعيداً عن الحدود ودعم جيش لبنان الجنوبي المتحالف مع إسرائيل.

وفي 22 أبريل عام 1979، هبط سمير القنطار وثلاثة أعضاء آخرين من جبهة التحرير الفلسطينية، وهو فصيل تابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، في نهاريا قادمين من صور عن طريق القوارب.. بعد قتل ضابط شرطة، كان قد اكتشف وجودهم، أخذوا أباً وابنته كرهائن في مبنى سكني.

وبعد فرارهم من الشرطة مع الرهائن عادوا إلى الشاطئ، ووقع بينهم تبادل لإطلاق النار مما أدى إلى مقتل شرطي واثنين من المسلحين.

وقد قام سمير القنطار بإعدام الرهائن وذلك قبل أن يتم القبض عليه مع المتسلل الآخر.

لبنان.. والحرب

.. بالطبع فأنت ما زلت تذكر وبشكل جيد ما حدث بعد ذلك.. فقد بدأت حرب لبنان يوم 6 يونيو 1982 وذلك عندما قامت إسرائيل بغزو لبنان وذلك رداً على محاولة لاغتيال السفير الإسرائيلي في لندن (شلومو آرغوف) تبنتها منظمة أبو نضال (وهي مجموعة منشقة عن حركة فتح).

وقامت إسرائيل بمهاجمة القواعد العسكرية الفلسطينية ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين والحركات العسكرية الفلسطينية الأخرى، بما فيها منظمة أبو نضال.. وقد قتل خلال الصراع أكثر من 17000 لبناني، وفرض الجيش الإسرائيلي حصارًا على بيروت.. وخلال تلك الحرب، كانت قد وقعت بعض الاشتباكات بين إسرائيل وسوريا أيضاً.

.. وخوفاً من اتساع رقعة الصراع والهيبة التي منحها الحصار لرئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، حصلت الولايات المتحدة

على موافقة جميع الأطراف لوقف إطلاق النار وشروط لانسحاب منظمة التحرير الفلسطينية وذلك يوم 12 أغسطس 1982م.

القوة المتعددة الجنسيات ذات الأغلبية المسلمة في لبنان وصلت للحفاظ على السلام وضمان انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية.. وخرج ياسر عرفات من بيروت في 30 أغسطس 1982، واستقر في تونس.

وبذلك يكون الاجتياح الإسرائيلي عام 1982 قد أدى إلى مغادرة منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان إلى تونس وقد استفادت إسرائيل من إنشاء المنطقة الأمنية في جنوب لبنان حيث شهد الجليل تخفيف عدد العمليات الفدائية التي نفذتها منظمة التحرير في السبعينيات.

على الرغم من النجاح الإسرائيلي في القضاء على قواعد منظمة التحرير الفلسطينية والانسحاب الجزئي في عام 1985، زاد الاجتياح الإسرائيلي فعلاً من شدة الصراع مع الميليشيات اللبنانية المحلية وأسفرت عن توحيد عدة حركات شيعية محلية في لبنان، بما في ذلك حزب الله وحركة أمل، من قبل حركة حرب العصابات غير المنظمة في الجنوب.

على مر السنين، نمت الخسائر العسكرية من كلا الجانبين بشكل مضطرد، حيث استخدم كلا الطرفين أسلحة أكثر حداثة، وتقدم حزب الله في تكتيكاته.

وفي بداية التسعينات برز حزب الله، بدعم من سوريا وإيران، كمجموعة رائدة وقوة عسكرية، محتكراً إدارة نشاط حرب العصابات في جنوب لبنان.

أدى نقل قواعد منظمة التحرير الفلسطينية إلى تونس إلى تدهور العلاقات الإسرائيلية التونسية، والتي كانت تعتبر أكثر تسامحاً في السابق.

خَلقَ الوضع الجديد لظهور المقاومة الفلسطينية المسلحة في منطقة تل الزعتر، مواجهات صامتة مع الكتائب اللبنانية اليمينية قبل تحوّلها إلى العلن بمواجهات مسلحة وعنيفة وانفجارات دامية.

تسكن المنطقة الجغرافية أغلبية طائفية تعيش تحت هيمنة ونفوذ الميليشيات الفاشية، وعلى وجه التحديد تحت سطوة عائلة الجميّل في منطقة المتن الجبلية، وبمسؤولية النائب أمين الجميّل مسؤول إقليم المتن الكتائبي والنجل الأكبر لزعيم الحزب بيار الجميّل، وتنمّر مجموعة ميليشية صغيرة وعنيفة بزعامة قائد محلي يدعى مارون خوري!..

بدأت ميليشيا خوري بتخزين السلاح وشرائه بكميات كبيرة منذ العام 1969 بذريعة التصدي لما اعتبروه «خطراً فلسطينياً داهماً»!

تزايدت الاحتكاكات بين الطرفين عقب انتقال المقاومة الفلسطينية إلى لبنان، إثر هزيمة فصائل منظمة التحرير بمواجهة النظام الأردني

خلال معارك عمان في أيلول 1970 وأحراش عجلون 1971.

تعرضت مخيمات لبنان ربيع 1973 إلى قصف الجيش اللبناني، في محاولة جادة لترحيل اللاجئين من منطقة بيروت الشرقية! استهدف القصف مخيمات تل الزعتر، جسر الباشا، ضبية ومار إلياس.

طوال عامين تطوع معظم طلبة لبنان، على اختلاف طوائفهم وتعدد أحزابهم التقدمية، من أجل مساندة فصائل المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية؛ في تحصين تل الزعتر قبل اندلاع الحرب الأهلية يوم 13 نيسان 1975، التي سجلت فيها المقاومة والحركة الوطنية انتصاراً تدريجياً على الجبهة اليمنية الانعزالية، لولا تدخل القوات السورية مطلع نيسان 1976 بمحاصرة امتداد انتصارات المقاومة على الأرض، واكتساح مواقع تحالف الجبهة الانعزالية اليمينية بعناوينها المختلفة والمتعددة: حزب الكتائب بزعامة بيار الجميّل، ميليشيات النمور بإمرة كميل شمعون، ميليشيات زغرتا بزعامة طوني فرنجية، ميليشيا «الأحرار» بزعامة داني شمعون، حراس الأرز بإمرة شارل عقل، «التنظيم الماروني» بإمرة جورج عدوان، و«حركة الموارنة» بزعامة مارون خوري، ومجموعة مسلحة بإمرة الميليشياوي إيتان صقر.

شكل تل الزعتر صاعق تفجير الحرب الأهلية من خلال جريمة حافلة عين الرمانة الشهيرة يوم 13 نيسان 1975 فتح مسلحو

الكتائب نيران أسلحتهم على حافلة (بوسطة) تقل لاجئين عائدين إلى تل الزعتر شرقي بيروت، عقب مهرجان سياسي للمقاومة الفلسطينية في مخيم شاتيلا غربي العاصمة اللبنانية.

خطف اعتداء عين الرمانة أرواح 27 فلسطينياً بريئاً، وزعم المعتدون أنه جاء رداً على مقتل اثنين من أنصار الكتائب؛ يعمل أحدهما مرافقاً لزعيم الميليشيات الكتائبية بيار الجميّل!

فرضت الحرب الأهلية وقائعها على المخيم ، وبات من نقاط التماس العسكرية بين المتقاتلين الذين انقسموا بين محوري القتال: بيروت الشرقية بمواجهة الغربية، وعبّر قادة الكتائب عن رغبتهم في «تطهير» المنطقة الشرقية من المخيمات..

أقدمت ميليشيات مارون خوري يوم الرابع من كانون ثاني 1976 على فرض طوق عسكري حول تل الزعتر انطلاقاً من الدكوانة، وترك المسلحون ممراً واحداً مفتوحاً، وتعرض المخيم لحصار تمويني مع اشتداد المعارك في طرابلس وبيروت والبقاع.. ومنعت الرابطة المارونية والكتائب والأحرار مرور أربع شاحنات تموينية إلى المخيم؛ عبر حرش ثابت غربي تل الزعتر، وهددت بتدميرها.

وبعد ثلاثة أيام تمكن مقاتلون فلسطينيون ولبنانيون من مهاجمة المسلحين في حرش ثابت، ونجحوا بفتح ثغرة في الحصار الذي استمر محكماً طوال 22 يوماً..

رد المسلحون بالاعتداء على مخيم الضبية شمال بيروت، ووقع في قبضة الكتائب بعد ثلاثة أيام من القتال الضاري، مما دعا القوات اللبنانية الفلسطينية المشتركة إلى مهاجمة الجيه والدامور والسعديات جنوب بيروت.

في جولة ثانية من المعارك الضارية؛ تمكن المقاتلون من إنهاء عزل تل الزعتر، وتأمين مرور شاحنات التموين بانتظام، لكن جولة قتال واسعة اندلعت أواخر أيار 1976 شملت تل الزعتر، الدكوانة، جسر الباشا، الحازمية، الشياح، المسلخ؛ طالب على إثرها الجميّل بنقل تل الزعتر من المنطقة الشرقية؛ مهدداً أنه لا يعرف طبيعة الاحتمالات القادمة قائلاً بالحرف:

«وجود المخيم في المنطقة الشرقية لا يشكل موقعاً إستراتيجياً بمواجهة إسرائيل»!

لكن حقيقة الأمر أن الأحزاب اليمينية التي يساندها الغرب، كانت تبحث عن إقامة (غيتو طائفي) مترف يشطب الأحياء اللبنانية الفقيرة ومخيمات اللاجئين، فأقدمت على تنفيذ مجازر في الأحياء اللبنانية الفقيرة: سبينة وحارة الغوارنة في أنطلياس، وحي المسلخ والكرنتينا قرب المرفأ، وحاولت كسر شبكة المقاومة والحركة الوطنية الممتدة بين مخيمي تل الزعتر وجسر الباشا والنبعة، وقد أطلق عليها بجدارة (مثلث الصمود)..

تعرض مثلث الصمود في حزيران 1976 إلى حصار تمويني استهدف المناطق الثلاث، واستمر زهاء شهرين بدعم أنطوان بركات الذي انشق عن الجيش اللبناني، وانتهى الحصار بسقوط مخيم جسر الباشا عسكرياً وإخلاء النبعة؛ تمهيداً لمجازر تل الزعتر، في حين واجهت القوات المشتركة يوم 7 حزيران قوات النظام السوري في منطقة صوفر الجبلية لتأخير تقدمها نحو بيروت، وتصدت لها أيضاً في مدينة صيدا الجنوبية وأعطبت للقوات السورية 18 دبابة.

ردت القوات السورية بقصف مكثف وعنيف لمناطق برج البراجنة، شاتيلا والطريق الجديدة غربي بيروت؛ مستهدفة قواعد المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية بقيادة كمال جنبلاط؛ وقد دفع الزعيم الفذّ حياته يوم 16 آذار 1977 على مذبح الحرية قبل أن يتجاوز الستين من عمره.

شددت الجبهة الفاشية اللبنانية الحصار على تل الزعتر في النصف الثاني من حزيران 1976 وتزايد الحصار عنفاً بالتدريج؛ تحت يافطة من التحريض الإعلامي مستنداً على قاعدة ثابتة وأسطوانة لا تنقطع: «لا مدنيين في المخيم، وكل المقاتلين مرتزقة»!

علماً أن تل الزعتر يسكنه 30 ألف نسمة، نصفهم ويزيد من اللاجئين الفلسطينيين، والباقي من فقراء لبنان وسوريا ومصر.

وضع «الملازم ميشال عون» قائد ثكنة الدكوانة خطة اقتحام تل

الزعتر، وبدأ العدوان الغادر في الثاني والعشرين من حزيران 1976 بهجمات الميليشيا المسلحة، سبقها قطع شبكة الكهرباء، وحظر وصول الطعام ومياه الشرب للفقراء واللاجئين..

في التاسع والعشرين من حزيران 1976 أعلن الزعيم «كمال جنبلاط» أن كتيبة سورية عَبَرت إلى منطقة بيروت الشرقية بملابس مدنية، وشاركت في الاعتداء على المخيم، فيما أكد الشاهد أبو أيمن عبد الله أنه رصد من بعيد 19 مدفعية تقصف تل الزعتر بلا توقف بمساندة سورية، تحت إشراف العقيد علي المدني الذي شارك مع قادة الكتائب في غرفة عمليات عسكرية مشتركة في الدكوانة.

في ظل الاشتباكات الواسعة على أكثر من محور للقتال، سقط مخيم جسر الباشا يوم 29 حزيران، وبدأ الصليب الأحمر بإخلاء اللاجئين، وبدا سقوط جسر الباشا نذير شؤم على تل الزعتر.

أطلق قناص من داخل «تل الزعتر» رصاصة يوم 13 تموز قتلت وليم حاوي رئيس المجلس الحربي الكتائبي، وقد أشرف «بمهنية عالية وروح قتالية»! على قصف المخيم، وتسلم المنصب بعد مقتله العسكري الميليشياوي بشير الجميّل الذي بحث عن أشرس السُبل للانتقام.

ازداد العدوان شراسة على المخيم، وصد المقاتلون سلسلة من الهجمات بفضل سيطرتهم على التلال المحيطة بالتل، فيما ساندت

بالقصف مدفعية القوات المشتركة المتمركزة في تلال عاليه وصوفر؛ لتخفيف الضغط عن المحاصرين في المخيم، الذين تعرضوا لمزيد من الهجمات..

عقب خطاب للرئيس السوري حافظ الأسد يوم 20 تموز؛ عندما أعلن فيه تأييده للجبهة الانعزالية اليمينية، ورفضه دعوة الزعيم التقدمي البارز كمال جنبلاط بتحرير لبنان من الميليشيات الفاشية العنصرية! عقب خطاب الرئيس حافظ الأسد، عقدت الميليشيات الانعزالية ومجموعات محلية مقاتلة يوم 29 تموز اتفاقاً يتيح بتهجير جماعي لأهالي حي النبعة نحو بيروت الغربية، و«سجلت» القوى الانعزالية «انتصارا»!.. وأبدت «فرحاً» بتهجير الضحايا الأبرياء.. وظل الاتفاقُ لغزاً سرياً لم يتم الكشف عنه حتى اللحظة.

حسن الأخرس

.. لعلك ما زلت تذكر ذلك الشاب اليافع المميز.. ذلك الشاب الذي كان أحد أفراد المقاومة الفلسطينية المميزين؛ والذي كان مميزاً في أكثر من جانب؛ فهو لم يتعد الثامنة عشرة من عمره بعد..

الشاب كان يتميز بأمور أخرى كالذكاء الحاد وقوة الشكيمة – رغم ضآلة حجمه وقصر قامته وخفة وزنه – كما كان يتميز بجمال الوجه والجسم.. وكان واضحاً وبشكل جلي أنه «أمرد».. أو كما يقال «جرودي».. أي لا شعر في وجهه كالذقن والشارب.. كما يتميز بالصوت الرفيع الرقيق الذي يشبه صوت النساء إلى حد كبير.. عدا عن حذقه لفنون الحرب وأساليب القتال.

كل هذه الأمور كانت ستبدو طبيعية وعادية لو كان الأمر طبيعياً للشاب.. ولكن الشاب كان «أبكم».. «أخرس» فهو لا يتكلم ولا يسمع.. فكان يعتمد بذكائه الخارق على حركة الشفاه واليدين للمتحدثين معه في كل الأمور؛ فيفهم بسرعة كل ما يريدون قوله.

أطلق عليه الرفاق لقب «حسن الأخرس».. وكان هذا هو اسمه الحقيقي أيضاً.. فاسمه الشخصي هو «حسن».. واسم عائلته «الأخرس» وذلك حسب البطاقة الشخصية والأوراق الشخصية الثبوتية الأخرى التي كانت بحوزته.. فكان بذلك «اسمًا على مسمى».

«حسن الأخرس» عرفه الجميع كشعلة من الذكاء والعطاء والحركة الدءوب.. سواءً أكان ذلك في المحافل الأدبية أو الاجتماعية أو الوطنية خلال إقامة الاحتفالات والمهرجانات المختلفة.. والتي كانت تقام في شتى الأماكن ومختلف المناسبات.

كما أنه كان علامة مميزة وشعلة من الحركة والنشاط أثناء المعارك التي كانت تدور بين رجال المقاومة والأحزاب اللبنانية المناوئة؛ سواءً أكان ذلك في بيروت أو ضواحيها أو المخيمات الفلسطينية القريبة.. فكان الجميع يشهدون له بالجرأة والإقدام والشجاعة في كل المعارك العديدة التي شارك فيها والتي خاضتها قوات المقاومة الفلسطينية على مدار الوقت.

.. ولعلك ما زلت تذكر وبشكل جيد.. ذلك اليوم؛ الذي كان يوماً مشهوداً وبحق.. وكان احتفالاً مميزاً.. بل كان عرساً ومهرجاناً وطنيا عظيماً.. شارك فيه الجميع بكل ما يملكون من طلقات نارية أطلقوها في الفضاء الفسيح.. وبكل ما يملكون من حروف وكلمات أدبية

شعرية تناوب على إلقائها الشعراء؛ وأدبية ألقاها الأدباء.. ولا شك بأنك كنت المشارك الفاعل في ذلك الاحتفال والعرس والمهرجان.

فلقد كان الحدث الجلل يستحق أكثر من هذا وذاك.. وكانت الشخصية التي كان يحتفل بها شخصية تستحق أكثر وأكثر..

نجم كل تلك الاحتفالية المهيبة كان حاضراً بروحه.. غائباً بجسده.. كان نجماً بدون حضور الجسد... بل كان حاضراً بروحه.. ومن ذا الذي يستحق كل هذا وذاك سواه؟! إنه «حسن الأخرس».. الشهيد «حسن الأخرس»..

كان البطل المغوار قد استشهد في إحدى المعارك التي كانت تخوضها قوات المقاومة الفلسطينية ضد أفراد أحد الأحزاب المتشددة التي كانت تناصبها العداء.. وقد استشهد «حسن الأخرس» في المعركة بعد أن أبلى فيها البلاء الحسن..

كانت جنازته المهيبة.. جنازة مهيبة مميزة.. شارك فيها كل رجال المقاومة الفلسطينية والأحزاب اللبنانية الوطنية الصديقة والمؤيدة للفلسطينيين.

.. وبدوري.. فأنا ما زلت أذكر حروف وكلمات تلك القصيدة العصماء التي قمت أنت بنظمها خصيصاً للمناسبة.. والتي ألقيتها على مسامعنا.. بمناسبة استشهاد البطل «حسن الأخرس».

لم أبكه يومها وحدي.. بل بكاه كل الرفاق من الحاضرين.. بكاه

الجميع بحرارة وبدموع مدرارة..

كانت تلك القصيدة التي قمت بنظمها وإلقائها على مسامع الجميع بمثابة مرثية مؤثرة في تأبين ووداع الشهيد البطل.. كانت القصيدة تتكون من ثمانية عشر بيتاً شعرياً.. بعدد سنوات عمر الشهيد تماماً.. وبعدد تلك الطلقات النارية التي استقرت في جسده تماماً؟!

.. ولم يقتصر الأمر على قصيدتك تلك.. فلقد تبعتها الطفلة التي أصبحت فتاة يافعة بقصيدة أخرى ترثي بها الشهيد البطل بعنوان «الشهيد».. فكانت القصيدة أكثر من مؤثرة وكانت مفاجأة بالفعل فوجئ بها الجميع.

لم تكن تلك هي المفاجأة الوحيدة.. فلقد كانت المفاجأة الحقيقية التي أدهشت الجميع وبحق؛ أن تلك القصيدة التي ألقتها الصبية لم تكن من نظمك وشعرك أنت؟! وذلك على غير جري العادة وللمرة الأولى.. بل كانت من نظم وشعر الصبية.. الفتاة الغضة «فلسطين».. فبكى جميع الحضور بكل ما تبقى لهم من قوة.. وبكل ما تبقى لديهم من دموع في المآقي..

لم يقتصر دور الفتاة الغضة - والتي أصبحت صبية يافعة - لم يقتصر دورها على إلقاء القصيدة الرائعة في الحفل.. بل قامت بأداء بعض الأدوار التمثيلية الشعرية والنثرية الرائعة على حدٍ سواء على خشبة المسرح.. فكانت تتقن تمثيل الأدوار التاريخية والشخصيات

الوطنية.. وبدورك فقد كنت تكرر - في كل مرة تشاهدها فيها - عبارة:

».. يا لك من شاعرة كبيرة! ويا لك من ممثلة قديرة»!

كل هذا كان يحدث في بيروت قبل المغادرة القسرية إلى تونس.

.. ها أنا أرى الدموع الحائرة تترقرق في عينيك.. لعل شريط الذكريات لتلك الأحداث قد عاد لمخيلتك يترى من جديد.. بل وأعتقد جازماً أن ذلك المشهد ما زال ماثلاً في مخيلتك وحتى اليوم.. بل هو يحتل مساحة لا بأس بها من ذاكرتك.. رغم انقضاء السنين الطوال.. فمثل هذه المواقف لا يمكن نسيانها بالمطلق مهما مرت عليها الأيام وانقضت السنين..

حصار بيروت

لا بد أنك ما زلت تذكر وبشكل جيد بأن حصار بيروت كان قد حدث في صيف 1982، كنتيجة لانهيار وقف إطلاق النارِ الذي أقرته الأمم المتحدة.

انتهى الحصار بخروج منظمة التحرير الفلسطينية بالقوة من لبنان، وإعادة إسرائيل فوراً تقريباً لكل الأرض التي استولت عليها في الحصارِ، متمسكة فقط بـ«منطقة أمن» عبارة عن قطاع من الأرض عرضه عشرة أميال على طول الحدود الإسرائيلية اللبنانية، وقد انسحبت إسرائيل من المنطقة لاحقاً في عام 2000.

كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد نقلت قاعدة عملياتها الأولى إلى بيروت في أواخر الستينات بعد الاشتباكات التي حدثت في الأردن وأدت إلى انسحابها من هناك.

وكان وجود القوات الفلسطينية أحد الأسباب الرئيسية التي أدّت إلى نزاع مسيحي- إسلامي في لبنان في 1975-1976 انتهى

باحتلال لبنان من قِبَل قوّات حفظ السلام من عِدّة دول عربية، منها سوريا.

على مدى السنوات القليلة التالية، اكتسب السوريون ومنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان قوة تفوق قدرة الحكومة اللبنانية الرسمية على تقليل أعمالهم أَو السيطَرة عليها.

وطوال هذا الوقت كانت هجمات المدفعية والهجمات الصاروخية تُطلق من الأراضي اللبنانية ضدّ إسرائيل.

في عام 1978، وثانية في عام 1981 وأوائل عام 1982، تبنّت الأمم المتحدة وقف إطلاق نار، وسُحِبَت القوات الإسرائيلية المرسلَة إلى لبنان لتقليل هذه الهجمات.

وفي عام 1982 قامت إسرائيل بغزو لبنان ثانية بعد محاولة اغتيال سفيرها «شلومو أرجوف» في لندن، على الرغم من علمها بأن مَن قام بالهجوم كانوا أشخاصاً من منظمة أبو نضال، التي كانت في حالة حرب مع منظمة التحرير الفلسطينية التي يتزعمها ياسر عرفات.

«أرائييل شارون» مهندس هذه الحرب (الذي أصبح وزير دفاع)، قدمها إلى الحكومة الإسرائيلية كهجوم محدود في جنوب لبنان لكنه أخذ قوَّاته إلى بيروت.

سُمّى الاحتلال رمزيّاً (كودياً) «عملية الصنوبر» أَو «السلام للجليل»، وكان الهدف هو إضعاف أو طَرد منظمة التحرير

الفلسطينية وفرض بشير جميل، رئيس حزب الكتائب المسيحي، كرئيس للبنان كي تفرض إسرائيل على لبنان توقيع معاهدة سلام معها وتجلب البلاد إلى دائرة نفوذ إسرائيل.

ولكن هذه الخطة فَشلت عندما اغتيل «بشير جميل» بعد فترة قصيرة من انتخابه رئيساً بالبرلمانِ اللبنانيِ تحت الضغط الإسرائيلي.

وغَزَت القوات الإسرائيلية لبنان في هجوم مُكوَّن من ثلاث شعب.. حيث تَحرّكت مجموعة واحدة على طول الطريق الساحلي إلى بيروت، وهدفت الأخرى إلى قطع طريق بيروت دمشق الرئيسي، وتَحرّكَت الثالثة على طول حدود لبنان مع سوريا، من أجل حَجب التعزيزات أو التدخل السوري.

بعد الحادي عشرِ من يونيو/ حزيران، اكتسبت إسرائيل تفوقاً جوياً بعد إسقاط عدد مِن الطائرات السورية؛ فدَعت سوريا إلى وقف إطلاق نار، وهَرب أغلبية فدائيي منظمة التحرير الفلسطينية من صور، صيدا، ومناطق أخرى إلى بيروت.

تَمنّت إسرائيل إكمال الحصارِ بأسرع ما يمكن؛ وكان هدفهم من غَزو لبنان هو تحقيق نصر سريع وحاسم.. بالإضافة إلى أن الولايات المتحدة كانت من خلال ممثلهم «فيليب حبيب»، تدفع لمفاوضات السلام؛ وكلما استمر الحصار أطول، كانت قدرة ياسر عرفات على المساومَة أعظم.

لسبعة أسابيع، هاجمت إسرائيل المدينة بحراً وجواً وأرضاً، وقطعت إمدادات الغذاء والمياه والكهرباء، واحتلت المطار وبعض الضواحي الجنوبية، لكن بدون تحقيق أهدافها الكبرى.. وكما هو الحال في معظم حالات الحصار، عانى آلاف المدنيين من سكان المدينة بِجانب فدائيي منظمة التحرير الفلسطينية؛ واتّهمت إسرائيل بشدّة بقصف المدينة عشوائياً بالإضافة إلى الإجراءات الأخرى التي اتخذتها لإضعاف منظمة التحرير الفلسطينية.

احتل الإسرائيليون عدة مواقع رئيسية في بقية لبنان، لكنهم لم يستطيعوا احتلال المدينة.. وقبل عقد اتفاقية سلام أخيراً؛ وافقت عليها سوريا في السابع من أغسطس/ آب ووافقت عليها الولايات المتحدة، إسرائيل، لبنان، ومنظمة التحرير الفلسطينية في الثامن عشر من أغسطس ، وفي 21 أغسطس/ آب، وصل 350 جندي مظلات فرنسيًا إلى بيروت، وتلاهم 800 جندي بحرية أمريكيين، وجنود حفظ سلام دوليون إضافيون (بقوة إجمالية 2130 جنديا) للإشراف على إزالة منظمة التحرير الفلسطينية، أولاً بالسفن وبعد ذلك براً، إلى تونس، اليمن، الأردن، وسوريا.

وفي النهاية؛ نجحت إسرائيل في إنهاء الهجمات الصاروخية لفترة قصيرة جداً، ونجحت في إخراج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان، لكنها أخفقت في تحرير لبنان من السيطرة السورية، وأخفقت

في إضعاف منظمة التحرير الفلسطينية عموماً.. وشَهِد الحصار أيضاً تمردَ قائد اللواء 211 المدرع وطرده المترتب على ذلك ، «ألي جيفا» ، الذي رفض قيادة قواته إلى داخل المدينة قائلاً إن هذا سيؤدّي إلى «قتل مفرط للمدنيين».

عدد الخسائر من المدنيين مختلف عليه، ومن المحتمل أن يكون بين 10000 و12000.

إن الإحصاء كالتالي: قدَّرت صحيفة النهار اللبنانية المنشورة في بيروت أن مجموع ضحايا أفراد الجيش والمدنيين في حملة لبنان (حتى الحصار وأثنائه) كان 17825 شخصًا.. باستثناء 2000 قتيل سوري، 1400 من منظمة التحرير الفلسطينية و3000-1000 مدني قتلوا في الحملة الجنوبيةِ، 1000 من منظمة التحرير الفلسطينية قُتلوا في الحصار، و368 من جيش العدو.. وهذا العدد يستثنى 3000-750 لاجئ فلسطيني قتلوا في مذبحة صبرا وشاتيلا، التي ارتُكِبَت عندما اقتحمت إسرائيل غرب بيروت بعد اغتيالِ بشير جميل ضاربة باتفاقية السلام التي تفاوض عليها فيليب حبيب عرض الحائط، وسمحت لقوات الكتائب بالدخول إلى المعسكرات.

بعد حصارِ بيروت، انتقل عرفات إلى اليونان، وبعد ذلك إلى تونس، مؤسساً مقراً جديداً هناك.. وقد واصل فدائيّو منظمة التحرير الفلسطينية العمل من اليمن، الأردن، الجزائر، العراق،

والسودان، بالإضافة إلى الأراضي الواقعة تحت السيطرة العدو الصهيوني.

وكان قد تم إبرام وقف إطلاق نار بين العدو الصهيوني ومنظمة التحرير الفلسطينية بإشراف المبعوث الأميركي «فيليب حبيب»، إلا أن العدو كان قلقا من تجمع قوات منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب لبنان منذ وقف إطلاق النار، والذي اعتبره تهديداً لأمن حدوده الشمالية.

وفي 1982/ 4/ 21 قصف سلاح الجو الصهيوني موقعا لمنظمة التحرير في جنوب لبنان.. وفي 1982/ 5/ 9 قامت قوات الثورة بقصف صاروخي لشمال فلسطين، وتلا هذا القصف المتبادل محاولة لاغتيال سفير العدو في بريطانيا، «شلومو أرجوف» في 1982/ 6/ 3 فقام العدو، وكردٍّ على هذه العملية بقصفٍ لمنشآت ومواقع تابعة للثورة الفلسطينية في قلب بيروت.. وفي اليوم التالي قامت قوات الثورة بقصف شمال فلسطين مرة أخرى.

قدم الرئيس الأمريكي «رونالد ريغان» الغطاء للعدو في هجومه على لبنان، وأعطاه الضوء الأخضر لتدمير منظمة التحرير.

قاد العمليات وزير الدفاع الإرهابي «أرييل شارون» في الحكومة التي كان يرأسها «مناحيم بيغن».. وقد أعلن وقتها أن السبب هو دفع منظمة التحرير الفلسطينية وصواريخ الكاتيوشا إلى مسافة 40

كلم عن حدود فلسطين.

.. وقد تعدلت الأهداف لاحقا، حيث أعلن الناطق الرسمي لحكومة العدو.. «آفي بارنز» أن أهداف العدو هي إجلاء كل القوات الغريبة عن لبنان، ومن ضمن ذلك الجيش السوري، وتدمير منظمة التحرير الفلسطينية، ومساعدة القوات اللبنانية في السيطرة على بيروت وتنصيبها كحكومة لبنانية تملك سلطة وسيادة على كامل التراب اللبناني؛ وتوقيع اتفاقية سلام مع الحكومة اللبنانية.. وضمان أمن المستوطنات الشمالية.

وقد بدأ الهجوم صباح يوم 1982/ 6/ 6 بتوغل 1100 دبابة في منطقة الجنوب.

تعرض الجيش الصهيوني إلى مقاومة شرسة عند محاولته احتلال قلعة شقيف الإستراتيجية، كما واجهت القوات المعادية مقاومة عنيفة من قبل مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في الجنوب اللبناني.

يوم 1982/ 6/ 7 سيطر العدو على مدينة صور، وبدأت قوات الثورة تتراجع إلى بيروت.. تدخل الجيش السوري.. وحصلت مصادمات برية وجوية اضطرت القوات السورية معها إلى التراجع إلى منطقة الجبل، لتقاتل فيما بعد بشراسة في البقاع وتكبد العدو خسائر كبيرة.. وبعد أيام سقطت صيدا والدامور معاقل منظمة التحرير، وبدأ جيش العدو بالتقدم نحو الطريق الرئيس بين بيروت

ودمشق مخترقا منطقة الشوف الواقعة في الجزء الجنوبي من جبل لبنان.

في 1982/ 6/ 9 وصل جيش العدو إلى مشارف بيروت.. وبعد 5 أيام من الاجتياح تمكنت القوات المعادية من بسط سيطرتها على ثلث الأراضي اللبنانية.

في يوم 1982/ 6/ 14 دخل جيش العدو شرق بيروت وقام بتطويق القسم الغربي الذي كان معقلا رئيسيا للمقاومة الفلسطينية.

مع اقتراب نهاية شهر حزيران/ يونيو كان هناك 100000 جندي صهيوني في لبنان، بينما وصل عدد القوات السورية إلى 40000 وكان هناك 11000 مقاتل فلسطيني محاصرين في غرب بيروت.

في مطلع شهر تموز أحكم جيش العدو فرض حصاره على غرب بيروت قاطعا وصول المواد الغذائية والماء إلى تلك المنطقة.. واستمر مقاتلو الثورة الفلسطينية في الدفاع عن بيروت بصورة أذهلت العالم.. واستمر هذا الصمود حتى طلبت القوى الوطنية اللبنانية من منظمة التحرير الفلسطينية وقف القتال والقبول بشروط مغادرة بيروت لأن شعب بيروت لم يعد يحتمل أكثر من ذلك.

في هذه الفترة كانت الدول العربية قد اجتمعت في «فاس» ، وطرحت مشروعا للتسوية السلمية يتضمن اعترافا ضمنيا لأول مرة بحق الكيان الغاصب في الأراضي التي احتلها عام 1948، وحق جميع دول المنطقة في العيش بسلام.

فلما رأت المنظمة استعداد العرب للتسليم، الذي ترافق مع ارتفاع بعض الأصوات الوطنية في بيروت؛ والتي كانت تدعو المنظمة لوقف القتال والانسحاب من بيروت، عندها وافقت المنظمة على مشروع التسوية وبدأت المفاوضات لإخراج المنظمة من بيروت.. وفي 18/ 8/ 1982 توصل الطرفان إلى اتفاق لوقف إطلاق النار بوساطة المبعوث الأمريكي «فيليب حبيب».

في اليوم التالي خفف العدو من حصاره لغرب بيروت؛ وسمح لإمدادات الصليب الأحمر بدخول بيروت الغربية.

قدم «رونالد ريغان» ضمانا شخصيا للمقاتلين الفلسطينيين بالحفاظ على أمنهم أثناء المغادرة، وأمن عائلاتهم إذا ما غادروا إلى تونس.. واضطر العدو إلى الموافقة على خروج المقاتلين تحت حماية دولية بعد أن كان اقتراحه الأول السماح بفتح معبر بري دون ضمانات.

في21/ 8/ 1982 بدأت قوات الثورة عملية الخروج من بيروت.. وكانت آخر رحلة بتاريخ 30/ 8/ 1982 والتي كانت تحمل المناضل «أبو عمار».. الذي توجه إلى تونس التي شكلت المعقل الأخير لمنظمة التحرير الفلسطينية حتى عام 1994.

وبذلك أصبحت المخيمات الفلسطينية في لبنان (باستثناء الشمال) مكشوفة وبدون أي قوات عسكرية.

وداعاً بيروت

.. أعرف جيداً بأنك ما زلت تذكر ما حدث بعد ذلك؛ فلقد كان القرار الصعب والعصيب بالموافقة - وعلى مضض - بمغادرة بيروت بعد تلك الحرب الطاحنة التي كانت؛ وبعد أن تم حصارنا في بيروت لأكثر من اثنين وسبعين يوماً عصيبة؛ كان العدو خلال تلك المدة يحاصرنا كمقاومين، ويحاصر بيروت وأهلها لكي يرغمنا على الاستسلام.. ولكننا صمدنا ذلك الصمود الأسطوري الذي شهد به العالم أجمع ولم نستسلم.. ولكننا في النهاية أجبرنا على الخروج.. من بيروت.

كم كان يحز في أنفسنا أن نغادر بيروت وإلى الأبد إلى حيث المجهول.. ولكن كان ما يحز في أنفسنا أكثر هو ذلك الخيار الصعب بأن نترك النساء والأطفال والشيوخ والمدنيين في المخيمات الفلسطينية لمصيرهم المجهول..

لعلك ما زلت تذكر وبشكل جيد ذلك المشهد العجيب رغم قتامة

الجو بشكل عام.. فلقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يراك الجميع وأنت ترتدي ذلك الزي الغريب عنك! فأنت لم تتعود على أن يراك أي أحد على مدار الوقت الذي مضى مرتدياً ذلك الزيّ الغريب بالنسبة لك.. زيّ رجال المقاومة الفلسطينية.. فلم يسبق لك أن ارتديت مثل هذا الزيّ في أي موقف أو أي مناسبة خلت.

.. كان قرارك الأخير هو مرافقتنا في رحلة المغادرة من بيروت وعدم البقاء فيها رغم أنك لم تكن عسكرياً في يوم من الأيام.. ولكنك كنت قد اتخذت قرار مغادرة بيروت وذلك بعد تفكير عميق من جانبك.. وبعد أن رأيت – من وجهة نظرك – أن قانون المرحلة يفرض عليك المغادرة.. ومرافقتنا في رحلة «الرحيل الجديد».. فقررت مرافقة رجال الثورة الذين كانوا يستعدون للمغادرة.

ولما كان قرار المغادرة قاصراً على رجال المقاومة العسكريين الذين كانوا يحملون البنادق فحسب.. ولم يكن يشمل المدنيين وأمثالك من حملة الفكر والقلم.. فكان قرارك الأخير بالمغادرة وخلع الزيَ المدني الذي كنت ترتديه.. وقمت بارتداء الزي العسكري المميز لرجال المقاومة لكي تتمكن من الانضمام إلى جموع رجال المقاومة المغادرين.. الجميع كانوا يحملون أسلحتهم الشخصية ويرتدون الزيّ العسكري المميز لرجال المقاومة.. إلا أنت..

ليس الغريب في الأمر أن تقوم من جانبك بارتداء الزي العسكري

المميز.. ولكن الغريب بأنك لم تكن تحمل البندقية.. بل كنت تحمل القلم عوضاً عنها.. فكان ذلك المشهد غريباً حقاً؛ خاصة عندما كنت تسير إلى جانبي.. وكلانا يرتدي الزي العسكري المميز.. حينما كنت بدوري أحمل البندقية.. بينما كنت بدورك تحمل القلم... فـ«البندقية لي.. والقلم لك»..

كنت ألمح تلك الدموع الحارقة الحائرة التي كانت تترقرق في عينيك وأنت تودع بيروت.. مخيمات بيروت.. أهل بيروت.. أطفال ونساء وشيوخ بيروت.. ولكن الذي كان يحز في نفسك أكثر ويمزقك أكثر؛ بل ويقتلك.. هو اضطرارك للتخلي عن الأمانة التي وضعتها «جميلة» في رقبتك ذات يوم..«فلسطين».. فطفلة الأمس صارت اليوم صبية.. ولم تعد تلك الطفلة الصغيرة.. فلقد أصبحت صبية ناضجة مكتملة.. ولم يكن من المسموح لنا أن نصطحب معنا النساء أو الأطفال أو الصبايا..

لقد تركت «فلسطين» الصبية لدى إحدى الأسر الفلسطينية المقيمة في أحد مخيمات بيروت.. لعله «مخيم صبرا» أو لعله «مخيم شاتيلا».. فأنت تركتها أمانة في رقبة رب الأسرة الفلسطينية وزوجته.. اللذين كانا يتنقلان باستمرار ما بين بيتيهما في «مخيم صبرا» و«مخيم شاتيلا».. ولم يكن هذا القرار من جانبك سهلا بالمطلق.. ولكن كان لا مفر من فعل ذلك.

كان الوداع الأخير مؤثراً للغاية.. بكي الجميع يومها بما فيه الكفاية.. وبدورك؛ فقد بكيت بكل ما تبقى في المآقي من دموع.. وبكى الجميع لبكائك.. وراحوا يشاركونك البكاء والدموع الحارقة وحشرجة الأنين.. خاصة وأنت تقوم بوداع «فلسطين» الوداع الأخير..

كان المشهد مؤثراً للغاية تعطلت فيه العبارات وانهالت العبرات.. تلك العبرات المدرارة التي كانت تقوم بترجمة الموقف بشكل جيد.

بدوري.. فقد قمت بمشاركتك الموقف والبكاء والدموع والأنين.. وقفت إلى جانبك في تلك اللحظات الرهيبة كما كنت أقف إلى جانبك في كل المواقف دوماً.

وفي النهاية.. كان لا بد من الفراق والوداع الأخير.. لحظتها كنت بدورك تقوم بالتشبث بيد الصبية «فلسطين» وتطبق على معصمها بيدين من فولاذ.

الصبية من جانبها كانت تقبض على يديك بكلتا يديها بكل ما بها من قوة.. راحت تتشبث بها وبك وترفض تركها وتركك.. وأصبح من المحال أن يترك أحدكما يد الأخر.. وأصبح من المستحيل أن يترك أحدكما الآخر.. لقد كان الارتعاش والبكاء والدموع سيد الموقف.

.. اندفع كل الرفاق ناحية السفينة الفرنسية العملاقة التي كانت ترسو في مرفأ بيروت والتي كانت تتأهب للانطلاق والمغادرة نحو المجهول.. بعد أن قاموا بوداع ذويهم.. وراحوا يلوحون بأيدهم

للمودعين..

.. لم يتبق في المكان سوانا.. أنا وأنت والصبية.. سوى الهمهمات والحشرجات والدموع ودمدمات الحروف والكلمات المكتومة المبهمة.

رحت بدوري أربت على كتفك وظهرك برقة وهدوء أطلب منك إنهاء الموقف والاستعداد للمغادرة والالتحاق بركب الرفاق..

لم تحس بحركاتي المتلاحقة ولا بوجودي ولا بهمساتي.. فلقد كنت تعيش في عالم آخر بعيد كل البعد عن عالمنا.

في النهاية.. كنت مضطراً إلى أن أقوم بفك الاشتباك الشديد بين الأيادي المتشابكة بقوة؛ خاصة أن كل الرفاق قد غادروا المكان ولم يتبق في المكان سوانا.. بينما أخذت السفينة الضخمة تطلق صفاراتها المزعجة المجلجلة تعلن بدء التحرك للمغادرة نحو المجهول..

مهمة اللحظات الأخيرة كانت صعبة وعسيرة.. فلم يكن أمامي من مناص من أن أقوم بسحبك وبالقوة من المكان الذي كنت تتشبث به.. تماماً كما كنت تتشبث بيدي الصبية..

بالكاد.. استطعت السيطرة على الموقف.. وانتزاعك من المكان.. وكان في الوقت برهة من الزمن.. كافية لأن تقوم بطبع قبلة حارقة مشبعة بالدموع فوق جبين الصبية.. وثمة برهة أخرى كانت كافية لأن تقوم الصبية بطبع قبلة مبللة بالدموع فوق جبينك.

كان المشهد رهيباً.. مؤثراً.. خاصة عندما كنت أقوم بمساعدتك بتحمل الموقف العصيب في اللحظات الأخيرة ومساعدتك على السير عندما كنت تسير بتثاقل وتعثر.. وبدا المشهد وكأننا كنا نسير في موكب جنائزي مهيب.

شعرت لحظتها بأنك سوف تنهار وتسقط إلى الأرض في أي لحظة.. فرحت أحاول إسنادك بكل ما تبقي بي من قوة.. ولكنك تحاملت على نفسك.. رحت تنظر نحو الصبية بعيون مغرورقة بالدموع ونفس مهيضة.. ورحت تلوح لها بيدك المكدودة.. وكأنك كنت تشعر بأنك في هذا تؤدي طقوس اللحظات الأخيرة من الوداع الأبدي..

.. ورحنا نندفع نحو مدخل السفينة الفرنسية العملاقة التي كانت تلفظ آخر أنفاس صفاراتها المدوية التي كانت تعلن نهاية الانتظار.. وبدء الرحلة الطويلة نحو المجهول.. والتحقنا بركب الرفاق من رجال وشباب المقاومة الذين أجبروا مثلنا على المغادرة والرحيل..

في اللحظات الأخيرة.. وقبل أن توصد السفينة العملاقة أبوابها بشكل نهائي وتام.. كان ثمة شاب يافع.. جميل الوجه بهي الطلعة.. رشيق الجسم؛ لم يتعد الثامنة عشرة من العمر.. يرتدي الزيّ العسكري المميز لرجال المقاومة ويحمل بيده السلاح الشخصي.. كان يعدو بكل ما يستطيع من قوة نحو مدخل السفينة قبل أن تقفل

بوابات السفينة العملاقة بلحظات يسيرة.. ولم يلبث أن غاب عن ناظرينا واندس بين جموع الرجال والشباب من المقاومين «الفدائيين» الذين كانوا قد صعدوا إلى السفينة للمغادرة.

.. عندما كنا نلمح ذلك الشاب؛ كنا نهتف سوية وبصوت واحد وقد تملكنا العجب الشديد:

- «حسن الأخرس«؟!

وداعاً بيروت.. مرحباً تونس

أعرف جيداً بأنك ما زلت تذكر ذلك المشهد الرهيب العصيب الذي كان يومها وما تلاه من أحداث في الأيام اللاحقة.

.. فلقد جادت عليك القريحة بمجموعة ضخمة من القصائد الشعرية المتتالية التي بدأت منذ لحظة مغادرة بيروت نحو المجهول.. مروراً بوداع الصبية.. «فلسطين» ذلك الوداع الملتهب.. انتهاءً بالصعود إلى تلك السفينة الفرنسية الضخمة التي قمت بتشبيهها في قصائدك بالوحش الأسطوري ذي الفم الفولاذي الضخم الذي لا يشبع.. والذي قام بابتلاع كل رجال المقاومة الذين أجبروا على مغادرة بيروت حيث المجهول.

وجادت عليك القريحة بالعديد من القصائد التي تحمل لوعة الفراق عن الأحبة والابتعاد عن أرض الوطن والرحيل المرة تلو الأخرى.. ومرارة الغربة القديمة واللجوء والترحال الذي لا ينتهي.

فمثل هذه الأمور لا يمكن أن يستطيع المرء نسيانها بالمطلق..

خاصة لمن هو مثلي ومثلك؛ فهي علامات فارقة وانعطافات حادة في درب الكفاح الطويل ومحطات مفصلية في تاريخ الوطن والقضية.

.. فيما بعد.. تحقق الأمر الغريب بالفعل وأصبح حقيقة واقعة.. ولم يكن ما رأيناه معا حلماً أو خيالاً أو سراباً..

فلم يكن ما كنا قد شاهدناه معا في اللحظات الأخيرة من لحظة المغادرة على ظهر السفينة الفرنسية العملاقة، لم يكن مجرد وهم أو طيف أو تخيلات.. بل كان حقيقة واقعة مجردة.. فإن «حسن الأخرس«؟! لم يكن مجرد شبح أو وهم.. بل كان حقيقة واقعة لا لبس فيها..

فعند وصولنا إلى الأراضي التونسية في رحلة اللجوء الجديدة؛ كان الحلم يتحول إلى حقيقة؛ والوهم إلى واقع ، فلقد رأينا معا ، كما رأى الآخرون ، «حسن الأخرس» بشحمه ولحمه يتمثل أمام أبصارنا جميعاً كحقيقة واقعة!

لقد شدهنا، أنا وأنت ، للأمر.. كما هو الحال بالنسبة لكل الرفاق الآخرين.. فلقد فتح الجميع أفواه الدهشة وجحظوا بأعينهم تساؤلاً وعجباً للأمر..

فنحن – والجميع – كنا نعلم وبشكل جيد أن «حسن الأخرس» كان قد استشهد في بيروت إبان الحرب الأهلية.. وقمنا جميعاً بأداء واجب العزاء والرثاء والتأبين.. فكيف يكون هذا الأمر والحال

كذلك؟! كيف يكون الشاب قد بعث من جديد؟! وهل كان ما نراه بأم أعيننا مجرد وهم وسراب وخداع بصر؟! لقد كان هو نفس الشاب بعينه.. بهيئته وشكله المميز.. بقامته وزيه العسكري المميز.. وأوصافه المعهودة..

لقد تحقق الجميع من الأمر وبشكل لا يقبل مجالاً للشك؛ فعندما كان الجميع يترجلون من السفينة الفرنسية العملاقة ويتقدمون لإثبات شخصياتهم تمهيداً لتدبر الأمور الحياتية والمعيشية الجديدة لهم من قبل المسئولين (التوانسة) التونسيين وكبار المسئولين من رجال المقاومة (الذين استولت عليهم الدهشة).. كان «حسن الأخرس» يتقدم من المكان بخطواته العسكرية الرشيقة المعهودة وابتسامته الجذلى الرائعة وهمهماته ودمدماته المشهورة؛ وهو يتقدم من المسئولين الذين أخذوا يتبادلون معه الحديث بلغة الإشارة التي كان يتقنها الشاب.. فسرعان ما كان الشاب يخرج من بين طيات ملابسه كل الأوراق التي تثبت شخصيته! من «بطاقة الهوية خاصته».. إلى الأوراق الثبوتية الأخرى.. و«كرنيه» رجال المقاومة المميز الخاص برجال الثورة والمقاومة..

العجب العجاب كان يستولي على الجميع وليس على كلينا فحسب.. فالكل كان يعرف وبشكل جيد بأن «حسن الأخرس» كان قد استشهد في إحدى المعارك التي كانت قد دارت بين رجال

المقاومة الفلسطينية ورجال بعض الأحزاب المناوئة في بيروت في حينه..

كانت الترتيبات السريعة للوضع الجديد لا تسمح بنزول كل فرد في حجرة مستقلة من المكان الذي كان قد تم اختياره من قبل المسئولين (التوانسة) التونسيين لنزول أفراد المقاومة فيه..

فنظراً لكثرة عدد رجال وشباب المقاومة الوافدين وضيق المكان؛ تقرر اعتماد أن تكون الحجرات مشتركة.. على أن يكون نزول كل فردين في حجرة واحدة كمكان إقامة؛ ولو بشكل مؤقت.. وترك أمر اختيار الشركاء في الحجرات للأفراد.

بالنسبة لي ولك.. فلقد كان أمر الاختيار جاهزاً ومحسوماً.. بأن تكون إحدى الحجرات مشتركة بيننا.. فهذا الأمر ليس مثار جدل أو نقاش أو تفكير.

عندما تم استيفاء كل البيانات المطلوبة من الشاب «حسن الأخرس» وتسجيل بياناته ضمن القوائم الطويلة.. كان على المسئولين – خاصة التونسيين – محاولة شرح الفكرة للشاب بلغة الإشارة؛ وذلك لمعرفة وجهة نظره في اختيار شريكه في الحجرة المشتركة..

الشاب «حسن الأخرس»؛ كان ذكياً بما فيه الكفاية.. فلقد فهم الأمر وتفهمه بسرعة غريبة!

فعندما طلب منه المسئولون اختيار رفيق له في الحجرة.. اندفع

الشاب نحوك بسرعة الصاروخ؛ وانقض عليك وراح يتعلق بك معلناً بذلك اختياره لك كشريك له في الحجرة المشتركة..

حاول المسؤولون إفهامه وإقناعه باستحالة الأمر.. لأنه سبق لك ولي أن قمنا بالاختيار وتم تسجيل وتوثيق ذلك بالسجلات والقوائم الرسمية.. راح العديد من المسئولين يشرحون له الأمر محاولين إقناعه بضرورة اختيار شخص آخر دون جدوى.. فلقد همهم الشاب ودمدم بعصبية ونزق غريب وهو يعلن رفضه المطلق لاختيار شخص آخر سواك.. وراح يتمسك برأيه وموقفه.. ويتمسك بك بإصرار وعناد غريب.. تماماً كما كان يتشبث بك ويمسك بتلابيبك ويقبض عليك بقوة بكلتا يديه!

كان الموقف حرجاً للغاية.. وإشكالية يصعب التعامل معها.. وفي كل الأحوال كان لا بد من إيجاد الحل المناسب للمعضلة.

ولعلك ما زلت تذكر، وبشكل جيد تلك اللحظات الحرجة الغريبة التي حدثت فيما بعد.. فبينما كنا جميعاً نقف مشدوهين لغرابة الحدث بتصرف الشاب وغرابة تواجده وانبعاثه من جديد أصلاً.. ولم يستطع أحد منا أن ينبس ببنت شفة أو ينطق بحرف.. فالشاب «حسن الأخرس» كان يقبض على معصميك بقوة فولاذية ويأبى الفكاك أو إطلاق سراحك.. بينما كنت بدورك تعاني الحيرة من الأمر..

حيال ذلك.. كان لا بد من اتخاذ القرار.. وبدوري.. كنت من أتخذ القرار.. فلقد أعلنت تنازلي عن موقفي بمشاركتك الحجرة المشتركة لصالح الشاب «حسن الأخرس» الذي كان متمسكاً برأيه ووجهة نظره - ومتمسكاً وممسكاً بك - بشكل غريب!

صبرا.. وشاتيلا

.. بالتأكيد لا يمكن أن تكون قد نسيت بالمطلق تلك الأحداث التي جرت بعد ذلك تباعاً.. خاصة تلك المجازر والمذابح الهمجية التي حدثت في مخيمي «صبرا» و«شاتيلا»..

.. فالكل يعرف بأن مذبحة «صبرا وشاتيلا» هي مذابح نفذت في مخيمي «صبرا وشاتيلا» للاجئين الفلسطينيين؛ وحدثت في 16 أيلول 1982 واستمرت لمدة ثلاثة أيام على يد المجموعات الانعزالية اللبنانية المتمثلة بحزب الكتائب اللبناني وجيش لبنان الجنوبي والجيش الإسرائيلي.

فقد حاصرت قوات العدو بقيادة «شارون» مخيمي صبرا وشاتيلا.. وقبل غروب شمس 16/9/1982 دخلت ميليشيا الكتائب اللبنانية إلى المخيمين؛ وعاثت فيهما قتلا وفسادا لمدة 36 ساعة.. رفع خلالها «شارون» شعاره المقيت (بدون عواطف).. وأسفرت هذه المجزرة عن استشهاد حوالي 3500 فلسطيني معظمهم من النساء

والأطفال والشيوخ.

كان دور جيش العدو الصهيوني، هو تشديد الحصار لمنع الدخول والخروج من المخيمين، وإطلاق القنابل المضيئة لتسهيل مهمة ميليشيا الكتائب، وتقديم الخدمات اللوجستية من طعام وسلاح للقوات المهاجمة.

كان عدد القتلى في المذبحة لا يعرف بوضوح وتتراوح التقديرات بين 750 و3500 قتيل من الرجال والأطفال والنساء والشيوخ المدنيين العزل من السلاح ، أغلبيتهم من الفلسطينيين ولكن من بينهم لبنانيون أيضا.

في ذلك الوقت كان المخيم مطوَّقًا بالكامل من قبل جيش لبنان الجنوبي والجيش الإسرائيلي الذي كان تحت قيادة «أرئيل شارون» و«رفائيل إيتان»؛ أما قيادة القوات التي هاجمت المخيمين وعاثت فيهما فساداً وتقتيلاً؛ فكانت تحت إمرة المدعو «إيلي حبيقة» المسؤول الكتائبي المتنفذ.

كانت قد دخلت ثلاث فرق إلى المخيم كل منها يتكون من خمسين مسلحًا إلى المخيم بحجة وجود 1500 مسلح فلسطيني داخل المخيم، وقامت المجموعات المارونية اللبنانية بالإطباق على سكان المخيم، وأخذوا يقتلون المدنيين قتلاً بلا هوادة، أطفال في سن الثالثة والرابعة وُجدوا غرقى في دمائهم، حوامل بقرت بُطونهن، ونساء تم

اغتصابهن قبل قتلهن، رجال وشيوخ ذُبحوا وقُتلوا، وكل من حاول الهرب كان القتل مصيره ، أكثر من 48 ساعة من القتل المستمر وسماء المخيم مغطاة بنيران القنابل المضيئة..

وكانت الآليات الإسرائيلية قد أحكمت إغلاقَ كل مداخل النجاة إلى المخيم فلم يُسمح للصحفيين ولا وكالات الأنباء بالدخول إلا بعد انتهاء المجزرة حين استفاق العالم على مذبحة من أبشع المذابح في تاريخ البشرية.

وقامت القوات الانعزالية بالدخول إلى المخيم وبدأت وبدم بارد بتنفيذ المجزرة التي هزت العالم ودونما رحمة وبعيدا عن الإعلام، وكانت قد استخدمت الأسلحة البيضاء وغيرها في عمليات التصفية لسكان المخيم العُزَّل، وكانت مهمة الجيش الإسرائيلي محاصرة المخيم وإنارته ليلاً بالقنابل المضيئة، ومنع هرب أي شخص وعزل المخيَّمَيْن عن العالم، وبهذا تسهل إسرائيل المهمة على القوّات اللبنانية المسيحية، وتقتل الأبرياء الفلسطينيين دون خسارة رصاصة واحدة ، وبوحشية لم يشهد العالم نظيرًا لها منذ مئات السنين.

قدرت بعض المصادر بأن عدد القتلى في المذبحة لا يعرف بوضوح وتتراوح التقديرات إلى حوالي 4000 شهيد من الرجال والأطفال والنساء والشيوخ المدنيين العزل من السلاح.

وهناك عدة تقارير تشير إلى عدد الشهداء في المذبحة، ولكنه لا

يوجد تلاؤم بين التقارير حيث يكون الفرق بين المعطيات الواردة في كل منها كبيرا.

في رسالة من ممثلي الصليب الأحمر لوزير الدفاع اللبناني يقال إن تعداد الجثث بلغ 328 جثة، ولكن لجنة التحقيق الإسرائيلية برئاسة «إسحاق كاهان» تلقت وثائق أخرى تشير إلى تعداد 460 جثة في موقع المذبحة.. وفي تقريرها النهائي استنتجت لجنة التحقيق الإسرائيلية من مصادر لبنانية وإسرائيلية أن عدد القتلى بلغ ما بين 700 و800 نسمة.. وفي تقرير إخباري لهيئة الإذاعة البريطانية BBC يشار إلى 800 قتيل في المذبحة..

وقدرت الأستاذة «بيان نويهض الحوت»، في كتابها «صبرا وشتيلا» سبتمبر 1982، عدد القتلى بـ1300 نسمة على الأقل حسب مقارنة بين 17 قائمة تفصل أسماء الضحايا ومصادر أخرى.. كما أفاد الصحافي البريطاني «روبرت فيسك» أن أحد ضباط الميليشيا المارونية الذي رفض كشف هويته قال إن أفراد الميليشيا قتلوا أكثر من 2000 فلسطيني.. أما الصحافي الإسرائيلي الفرنسي «أمنون كابليوك» فقال في كتاب نشر عن المذبحة إن الصليب الأحمر جمع 3000 جثة، بينما جمع أفراد الميليشيا 2000 جثة إضافية، مما يشير إلى 5000 قتيل في المذبحة على الأقل.

وفي 1 نوفمبر 1982 أمرت الحكومة الإسرائيلية المحكمة العليا

بتشكيل لجنة تحقيق خاصة، وقرر رئيس المحكمة العليا، «إسحاق كاهان»، أن يرأس اللجنة بنفسه، حيث سميت «لجنة كاهان».. وفي 7 فبراير 1983 أعلنت اللجنة نتائج البحث وقررت أن وزير الدفاع الإسرائيلي «شارون» يتحمل مسؤولية مباشرة عن المذبحة، إذ إنه تجاهل إمكانية وقوعها، ولم يسع للحيلولة دونها.. كذلك انتقدت اللجنة رئيس الوزراء «مناحيم بيغن»، ووزير الخارجية «إسحاق شامير»، ورئيس أركان الجيش الإسرائيلي «رفائيل إيتان»، وقادة المخابرات، قائلةً إنهم لم يقوموا بما يكفي للحيلولة دون المذبحة أو لإيقافها حينما بدأت.

وقد رفض «أريئيل شارون» قرار اللجنة، ولكنه استقال من منصب وزير الدفاع عندما تكثفت الضغوط عليه.. وبعد استقالته عُيِّن «شارون» وزيرًا بلا حقيبة وزاريّة (أي عضو في مجلس الوزراء دون وزارة معينة لإسرائيل).. إلا أنه بعد ذلك تم انتخابه رئيسًا للحكومة؛ وقام بمجازر عديدة غيرها في الأراضي الفلسطينية ولم تتم محاكمته رغم ثبوت التهم عليه.

.. وما زلت أذكر بدوري – كما هو الحال بالنسبة لك – وبشكل جيد كيف كان الوضع الصحي والنفسي لك بعد أن تناهت إلى مسامعنا ومسامع العالم أجمع أخبار تلك المجازر الوحشية الرهيبة التي ارتكبتها ميليشيا الكتائب والميليشيات الأخرى التي كانت تدور

في فلكها؛ وبتواطؤ وحماية من العدو الإسرائيلي.. ومدى اهتمامك ومتابعاتك المكثفة لمجريات تلك الأحداث.. ولتلك القوائم التي كانت تصلنا تباعاً؛ والتي كانت تحتوي على أسماء الشهداء والجرحى لتلك المجازر الوحشية التي ارتكبت في مخيمي «صبرا» و«شاتيلا».

.. التأثر الشديد كان واضحاً وجلياً على محياك، ومسيطراً على كل أجزاء وجهك وخلجات نفسك.. وكنت تبحث بعينيك وبكل حواسك عن اسم «فلسطين» بين تلك القوائم الطويلة من الشهداء والجرحى.. وفي كل مرة كنت تشعر بنوع من الارتياح الممزوج بالألم والمرارة والنحيب والترقب بعد أن تكون قد فشلت في العثور على اسم «فلسطين» بين كل تلك القوائم الطويلة العديدة.

ما زلت أذكر ذلك وبشكل جيد.. خاصة عندما كنت تتوقف طويلاً أمام قوائم تلك الأسماء التي كنت تشعر بأنها قريبة من اسم «فلسطين».. أو تلك الأسماء التي كنت تظن بأنها تعود لأحد الأقارب أو المعارف أو الأصدقاء أو الرفاق الذين كانوا يمتون لك بصلة القرابة أو الصداقة.

في حينه.. ولعلك ما زلت تذكر ذلك الأمر وبشكل جيد.. قمنا جميعاً بإقامة بيت عزاء ضخم.. وقمنا جميعاً بأداء «صلاة الغائب» على أرواح جميع الشهداء الذين استشهدوا في مخيمي «صبرا» و«شاتيلا».. وقمنا بفتح «بيت العزاء» الكبير الضخم لاستقبال كافة

المعزين من جميع شرائح المجتمع التونسي والمغربي.. وأبناء الجاليات العربية.. والفلسطينيين المقيمين في الشتات والغربة والخارج، وقد ارتاد «خيمة العزاء» العديد من الشخصيات الهامة وكبار المسؤولين الفلسطينيين والتونسيين والعرب والدول الصديقة.

ورغم ما كنت تعانيه من توتر وحالة نفسية عصيبة رهيبة.. إلا أنك في نهاية المطاف شعرت بشيء من الارتياح الممزوج بغصة وألم؛ ذلك لأنك في النهاية لم تعثر على اسم «فلسطين» بين تلك القوائم الطويلة التي كانت تضم أسماء آلاف الشهداء والمصابين.

وما زلت بدوري أذكر وبشكل جيد روعة تلك القصائد الحماسية النارية الوطنية الملتهبة التي كنت تلقيها على مسامعنا خلال تلك الفعاليات العديدة التي كانت قد أقيمت في تلك المناسبة.. تلك القصائد الملتهبة التي كانت تثير فينا الشجن ولواعج الحزن.. فنبكي جميعاً كما لم نبك من قبل.

أعرف جيدا بأنك كنت تدرك أن خروج قوات المقاومة الفلسطينيّة من بيروت صيف العام 1982 لم يكن نهاية الكفاح الفلسطينيّ ضد الاحتلال.. لكنه كان بداية النهاية للثورة الفلسطينية التي انطلقت في أعقاب هزيمة العام 1967.. وقد كان لهذا الخروج تبعاته السياسيّة الخطيرة على القضية الفلسطينية، بعد أن جنحت قيادة الثورة إلى السلم على جرعات، من لحظة الخروج من بيروت وصولاً إلى

اتفاق أوسلو.. الذي كانت له تبعاته النفسية والاجتماعية على آلاف الشباب والشابات الذين غادروا لبنان إلى جهات الأرض الأربع وتركوا أرواحهم هناك.. لقد تركوا فلسطين صغيرة داخل المخيمات في لبنان ، لتلقي بهم التفاهمات الدولية بعيداً.

لا شك، فإن النتائج السياسية التي أعقبت الخروج من لبنان وما آلت إليه القضية الفلسطينية اليوم قد غطّت على الندوب النفسية والاجتماعية التي خلفها شتات المقاومة بعد الحصار، لكنها تجلت، أي الندوب، في المُنجز الإبداعي والثقافي الفلسطيني لاحقاً، وإبداعات أغلب المثقفين الذين عايشوا تلك المرحلة، فلسطينيين كانوا أو عرباً.

فقد نفرت القيادة الفلسطينية ومعها آلاف الفدائيين والمثقفين والصحافيين.. فوجد هؤلاء جميعاً أنفسهم وكأنهم في كوكب آخر.. لا رصاص ولا متاريس.. لا مطابع ولا صحافة حرّة.. بلادٌ هادئة جداً، لا تصلح للمقاتلين ولا تحدّها أي حدود مع العدو الصهيوني من أيّ جانب.. فماذا يفعل الفدائي الفلسطيني في تونس بعيداً عن حدود الوطن المحتل؟! وماذا يفعل المثقف الفلسطيني بعيداً عن المعركة؟! لقد أنهى الخروج القسري مجتمع الثورة الذي تشكل في بيروت منذ بداية السبعينيات، وأسس لشتاتٍ جديد في تونس؛ فكانت مرحلة التشظي الاجتماعي الفلسطيني.. وانتهت كل تلك المرحلة التي عاشها الفدائيون والشعراء ووجدنا أنفسنا مقاتلين بلا

معركة ، نرتدي ملابس نظيفة بدلاً من بدلة الكاكي، ولا نحمل كلاشنيكوف، كانت غربةً مرّةً، لم أتوقع يوماً أن أعيش بعيداً عن (الطخّ)، بعيداً عن فلسطين..

وعندما ارتديت الملابس المدنية النظيفة أصبحت مثلك تماماً.. مع الفارق الكبير بأنك الأفضل بكثير لأنني وببساطة تخليت عن بندقيتي.. ولم أعرف كيف أحمل القلم.. بينما لم تتخل أنت عن حمل القلم.

فأنت ما زلت تذكر مثلي أنه في خريف العام 1982، كان لبنان آخر ساحات الاحتكاك بين المقاومة والاحتلال، وكان الخروج إلى تونس يعني نهاية الكفاح المسلح، فمهما حاولت القيادة الفلسطينية يومئذ إعطاء مبررات لابتعادها عن دول الطوق، فقد كشفت السنوات اللاحقة أن اختيار المحطة التونسية لم يكن عبثاً.. ولم يكن الأمر يحتاج إلى الكثير من الذكاء والثقافة، فالمقاتل البسيط كان يدرك ذلك وبكل بساطة.

.. فعندما صعدنا إلى السفينة الفرنسية الضخمة مغادرين بيروت بصحبة الرفاق من رجال وشباب المقاومة، وكان ميناء اللاذقية السوري وجهتنا كمرحلة أولى، طلبت منا القوات الغربية، التي كانت تؤمن عملية الخروج، وضع بنادقنا في مخازن السفينة؟! وعندما رميت بندقيتي، أدركت لحظتها أن الثورة انتهت فعلياً.

لقد مرّ في ذهني – وذهنك – شريط الأحداث الطويل، منذ تركنا الأردن عندما كنا قد انخرطنا في صفوف رجال الثورة، فقد كنت يومها أمني النفس بالعودة إلى مدينتي الجميلة «يافا» المحتلة.. ولا شك أنك كنت أيضا تمني نفسك بالعودة إلى مدينتك الجميلة المحتلة «حيفا».. أما في تلك اللحظة التي رميت فيها بندقيتي في مخازن السفينة الفرنسية الضخمة؛ فقد شعرت وللمرة الأولى بأن الطريق إلى فلسطين أصبح بعيداً.. بل بعيداً جداً.

في هذا الشريط الطويل والدامي، لا شك أن بيروت كانت أحلى المراحل وأجملها.. بيروت المدينة التي احتضنتنا يوم تخلى عنا الجميع.. بيروت التي التفت حولنا كالأم الحنون يوم أن طلب منا أخوة العروبة بأن ننتحر داخل أسوارها، ثم وصفونا بالخراف! وكان نفس الحال بالنسبة إلى مثقفي الثورة وشعرائها.. من أمثالك، إذ كانت الساحة البيروتية منبعاً للإبداع ومتنفساً.. وكانت ساحة جذب للمتمردين العرب، يأتونها هرباً من أعين الرقيب ورجال المخابرات ودعماً للفدائي الفلسطيني.. ومنهم الشاعر السوري، «هادي دانيال» الذي كان من بين هؤلاء الذين زحفوا إلى بيروت بعد وصول «منظمة التحرير الفلسطينية» مطلع سبعينيات القرن الماضي الذي قدم إليها يومها مندهشاً وخرج منها غريباً!

ويصف الشاعر السوري، «هادي دانيال» ذلك الموقف بأسلوبه

الرائع:

عندما توجّهت بمحض إرادتي من سوريا إلى لبنان، ولكن في الوقت نفسه متفَلّتاً مِن ظلال كثيفة لسلطة مركّبة، أحِسّ بثَقَلها ولا أعيها، كشاعر في سنِّ المراهقَة يشعر أن المكان، على الرّغم من احتفائه بموهبته الواعدة، يزداد ضيقاً ويكاد يكسر أجنحة طُموحاته الجامحة، كانَ شعوراً حاداً بالغربة يتملَّكني.. وفي بيروت التي دخلتها من بوّابة الفاكهاني مُجَمَّع مكاتب فصائل الثورة الفلسطينيّة – قبلَ عامين مِن بدءِ «الحرب الأهليّة» – لم أفرد جناحيّ اللذين نبتا في دمشق فقط بل نبتت لي أجنحة إضافيّة.. فقبل الحرب؛ عشت عامين مِن الدّهشة المُتواصلة، دهشة المغامرة الشاملة.. في مجتمع صاخب بنداءات الحريّة والتّحرّر، مجتمع استجاب تلقائيّاً لنزوعاتي الفرديّة، بل حرّرني لاحقاً ممّا علق تحت جلدي من لواجم مجتمعي الأصليّ.. لا أستطيع أن أسمّي هذا المجتمع الجديد باللبناني أو الفلسطيني؛ لأنّه كان فقط مجتمع الثورة بكيميائها الخاصّة التي مزجت جميع روافدها المحليّة والإقليميّة والدوليّة، وحتى في إبّان الحرب الأهلية اللبنانيّة كنّا نشعر أننا في صلب الحياة وقلب العالم، وأنّ العالم يأتي إلينا بما ينتجه ويهجس به فكريا وإبداعيا إلى جانب أنواع التبوغ والخمور والأزياء.. على الرغم من أشكال الموت والحصار، ولقد كان لبيروت رائحة مسكرة تحفّز الخيال والحبر.. فهناك، تلمّست

بحواسّي كلّها الحريّةَ ككائن فرد محتف بذاته ويهبها بشغف لقضيّة الجّماعة، وَكمبدع شاب لا لاجم لطموحه الشعريّ غير أوهامه السياسيّة الأيديولوجيّة آنذاك تعامل مع الواقع.

.. فعندما خرجت «منظمة التحرير» من الأردن إلى لبنان وذلك في أعقاب أحداث «أيلول الأسود»، لم يكن التحوّل الاجتماعيّ جذرياً، لجهة أن الانتقال حدث من بيئة مشرقية شامية إلى بيئة مشابهة تماماً مع اختلافات طفيفة تتعلق بطبيعة النظام السياسي.. فلم يواجه الفلسطينيون في لبنان مشكلات على مستوى اللغة والعادات والتقاليد، ولا حتى في أنواع وأشكال الطعام.. ففي لبنان، كانت المخيمات الفلسطينية وسكانها وطناً صغيراً، لا يشعر فيه الفدائي بالغربة.. على عكس ما كنا نشعر به عندما انتقلنا إلى تونس.. حيث كانت اللغة واللهجة والعادات والتقاليد مختلفة تماماً.. ولكن وجدنا أنفسنا مجبرين على التعايش والتأقلم فيها.

.. إلى أن.. عدنا لأرض الوطن بعد الغربة الطويلة.. ولكن أي عودة هي تلك التي كانت..

عودة ميمونة

ولعلك مازلت تذكر جيداً ذلك الأمر الذي كان قد حدث يومها.. بعد تلك العودة «الميمونة» إلى أرض الوطن..

.. فجأة؛ كانت الفتاة تظهر من جديد.. بعد أن غابت عني وعنك عدة سنوات.. ظهرت فجأة.. تماماً كما غابت فجأة.

فبعد وصولنا إلى أرض الوطن؛ وذلك بعد تلك الاتفاقية ذات الألوان المموهة الضبابية المبهمة.. والمسماة «اتفاقية أوسلو»؛ كنا نعود إلى أرض الوطن عودة الأبطال الميامين المنتصرين، كما كنا نتصور الأمر، وكما صور لنا قادة المقاومة العسكريون والسياسيون الذين كانوا يرافقوننا في رحلة العودة إلى أرض الوطن ووداع تونس والغربة للأبد.

كانت «يافا» تزمع قبيل البدء برحلة العودة على أن ترافقك كظلك في رحلة العودة إلى أرض الوطن في حينه.. وتؤكد لنا بأنها تأبى إلا أن ترافقك في كل خطوة تخطوها؛ ولعلها بذلك كانت تعوض بعضاً مما

فقدته بفقدان أبويها وأسرتها وذويها الذين كانوا قد استشهدوا جميعا في مجازر «صبرا وشاتيلا» عندما كانت صبية يافعة وفي مقتبل العمر؛ مما دعاها لمغادرة بيروت والتوجه إلى «تونس» للإقامة هناك بعد انتقال مكاتب المقاومة إليها.

.. ولا شك أنك ما زلت تذكر وبشكل جيد ذلك اللقاء الذي حدث بيننا وبين تلك الصبية؛ وذلك في أحد الاحتفالات التي كان مسئولو المقاومة في تونس يقيمونها بشكل دوري في شتى المناسبات، والتي كنت بدورك تلقي خلالها قصائدك الوطنية الحماسية التي كانت تلهب المشاعر وتدغدغ الأحاسيس..

عندما وقف «عريف الحفل» يومها على المنصة.. وكان يعلن عن مشاركة شاعرة وأديبة عملاقة.. ويستعد لتقديمها في وصلة شعرية من نظمها وإلقائها.. وقام «عريف الحفل» بتعريف الجميع على الشاعرة المبدعة، وذلك قبل ظهورها على المسرح المتواضع للحفل..

عرفها بـ«الشاعرة الفلسطينية.. يافا».. وكان هذا هو اسمها وأيضاً هو اسم المدينة الفلسطينية التي نزحت منها أسرتها في عام النكبة.

تلك الأسرة التي نزحت شمالاً؛ وأقامت في أحد مخيمات النزوح (اللاجئين) في لبنان والمقام بالقرب من بيروت العاصمة.

تلك الأسرة التي أبيد جميع أفرادها على يد المجرمين العتاة أثناء اقتحامهم لمخيمي «شاتيلا» و«تل الزعتر».. والقضاء على كل سكان

المخيمين وبشكل وحشي بربري.. تلك المذابح التي لم ينج منها أحد من الأسرة سوى تلك الصبية اليافعة «يافا»، التي كانت يومها تقوم بزيارة لبعض صديقاتها خارج المخيم.. والتي آثرت - فيما بعد - اللحاق برفاق المقاومة والالتحاق بهم في منفاهم الجديد.. تونس.

الفتاة الشاعرة كانت تجيد قرض الشعر وفن الخطابة والإلقاء.. وهذا ما مهد لها الطريق لنشر العديد من قصائدها الوطنية الحماسية الرنانة في الصحف والمجلات التونسية والنشرات الدورية للمقاومة هناك.

أعرف بأنك كنت من أشد المعجبين بالفتاة الشاعرة والمتحمسين لحروفها وكلماتها حتى قبل أن تلتقيها وتراها في ذلك الحفل.. فكنت تنكب دوماً على قراءة قصائدها العديدة حال نشرها في أي صحيفة أو مجلة أو نشرة دورية..

.. ظهرت «يافا» على خشبة المسرح استعداداً لإلقاء إحدى قصائدها الجديدة.. وذلك بعد أن انتهى «عريف الحفل» من تقديمها لجمهور الحاضرين.. وذلك بعد أن كنت بدورك قد قمت بإلقاء إحدى قصائدك الجديدة النارية الحماسية.. وجلست في مقعدك إلى جانبي.

.. ما إن وقع بصرك على الفتاة.. حتى رأيتك تكاد أن تسقط عن المقعد الذي كنت تجلس عليه إلى الأرض؛ لولا أن قمت بدوري للمسارعة بإسنادك بكلتا يدي للحيلولة بينك وبين الوقوع..

حاولت جهدي؛ وبقدر ما أستطيع أن أعيد إليك وعيك..

وبدورك.. فقد كنت تتمتم بما يشبه الهمس:

– محال! مستحيل! إنها «فلسطين»..

كانت الشاعرة قد توسطت خشبة المسرح.. ووقفت بإباء وشموخ.. وبدأت بإلقاء قصيدتها وسط عاصفة من التصفيق الحاد..

بالكاد.. استطعت أن أسندك.. وأجلستك بشكل جيد في مقعدك؛ ورحنا نتابع سوية تلك الصبية الشاعرة.. الشاعرة الملهمة وهي ما زالت تلقي كلمات قصيدتها الوطنية النارية الملتهبة والتي ألهبت مشاعر وأحاسيس كل المستمعين الذين كانوا يقاطعونها باستمرار بالتصفيق الحاد المتواصل.. بينما كنت بدورك تتمتم بين الفينة والأخرى بما يشبه الهمس:

– إنها «فلسطين».. بشكلها وقوامها.. حرفها.. كلماتها.. وشعرها.. ولكن؛ كيف تكون هنا وقد تركتها هناك.. في بيروت..

.. ما إن انتهت الفتاة.. الصبية الشاعرة من إلقاء قصيدتها؛ حتى كنت تنهض من مكانك وتتوجه ناحية خشبة المسرح وصوب الشاعرة.. تمد بيدك لمصافحتها بحرارة.. فيرتفع التصفيق الحاد من قبل الحاضرين لك.. ولها.

.. في نهاية المهرجان؛ جلسنا معا في ركن جانبي من المكان.. راحت الفتاة تتحدث وتتحدث.. مرة بالشعر وأخرى بالنثر.. فتجيد الحديث بكليهما.. استعرضت العديد من قصائدها الجديدة التي لم تنشر بعد..

وطلبت رأينا فيها.

بدوري.. أشرت لها ناحية البندقية التي كنت أحملها منوهاً وموحياً إلى أنني رجل مقاومة وبندقية.. وأشرت لها ناحيتك بإشارة ذات دلالة توحي بالكتابة والقلم منوهاً إلى أنك رجل الفكر والقلم..

وكأن لسان حالي يقول:

«البندقية لي.. والقلم لك»..

تحدثت الفتاة كثيراً.. تكلمت كثيرا.. بينما الصمت المطبق والوجوم التام يخيم عليك.. سوى من إيماءة رأس بالموافقة على أمر ما.. أو التلويح باليد إشارة لأمر معين.. كنت تحدق في وجه الفتاة وبشكل غريب.. وكأنك كنت تتمتم وتردد بصمت:

«لا أصدق ما أرى! مستحيل.. فهي تشبه كثيرا «فلسطين»!

حقاً .. إن الأمور متشابهة كثيرا بين الفتاتين وبشكل غريب.. ولكن ثمة مثل دارج يقول:

«يخلق من الشبه أربعين»..

كان اللقاء قصيرا.. بل لعله كان لقاءً من جانب واحد.. وحديث من جانب واحد.. هو جانب الفتاة الشاعرة.. ويبدو أن الفتاة كانت في عجلة من أمرها.. فاستأذنت بالمغادرة.. نهضنا معا لوداعها.. ولم تلبث أن غابت عن أعيننا بينما الدهشة والغرابة ما زالت تسيطر على كل حواسك ومشاعرك.

من جانبي.. فقد لاحظت وبشكل جيد مدى اهتمامك بأمر الفتاة.. بل وبتعلقك بها! فلعلك قد وجدت فيها - يومئذ وللوهلة الأولى - بعض السلوى والتعويض عن «جميلة» و«فلسطين».. فقد كانت تشبههما إلى حد كبير.

.. وتكررت اللقاءات فيما بعد بين ثلاثتنا.. ودار حديث الأدب الوطني وشعر المقاومة بينكما.. بينما كنت بدوري أقوم بدور المستمع والمتابع فحسب.

بدورك.. فقد شعرت وبشعور غريزي مبهم بأن الفتاة قريبة جداً منك.. وكأنك كنت تشعر في قرارة نفسك بأن الحرمان الذي عانيته بفقدان «جميلة»، والابتعاد عن «فلسطين» قد عوضه الله سبحانه وتعالى عليك بأن وضع «يافا» في طريقك..

.. واقع الأمر؛ ومن جانبي فقد كنت مقتنعاً تماماً بأن تلك الصبية الشاعرة «يافا» كانت تشبه وإلى حد كبير كلا من «جميلة» و«فلسطين»، ولكني كنت في كل مرة أكرر على مسامعك ذلك المثل الدارج: «يخلق من الشبه أربعين»..

بطريقة ما.. ما بين عرض وقبول.. اتفقتما على إقامة ندوة شعرية على أن تقتصر على كليكما في تقديم الوصلات الشعرية، وذلك في احتفال قريب بإحدى المناسبات الوطنية..

.. وكان لكما ذلك فيما بعد..

عودة ميمونة

.. ثمة أمور غريبة وأحداث عجيبة تحدث للمرء ولا يستطيع لها تفسيراً منطقياً، وكأنها اللغز والأحجية أو المتاهة التي يصعب على المرء الخروج منها.

فقبيل مغادرتنا الأراضي التونسية بقصد التوجه إلى أرض الوطن.. كان هناك ثمة أمر قد حدث ولم نجد له حلاً.. ففي خضم الاستعدادات الجارية – على قدم وساق – من جميع رجال المقاومة وقادتها السياسيين الذين كانوا يقيمون في تونس منذ سنوات طوال.. حدث أمر غريب بالفعل.. فلقد غابت عن أعيننا تلك الفتاة اليافعة؛ الشاعرة القديرة «يافا»؛ ولم يعد أحد يراها.. وهي التي كانت تصمم على أن ترافقك في كل خطوة تخطوها ولا تفارقك للحظة.. وقد لفت هذا الأمر النظر وبشكل جيد.. رغم انشغال الجميع – وانشغالنا أيضاً؛ أنا وأنت – في التجهيز والتحضير للمغادرة.. بالنسبة لك ولي؛ فلقد كان الأمر مميزاً بالفعل ومقلقاً.. ولكنه كان بالنسبة لك

أكثر قلقاً.

ويبدو بأن الغرائب والعجائب تأبى أن تأتي فرادى؛ فلقد اكتملت حلقات المتاهة.. وذلك عندما تغيب أيضاً «حسن الأخرس» عن أعيننا وأعين الجميع.. ولم يعد يظهر له أي أثر.. ولم نعثر عليه بالمطلق رغم بحثنا الشديد المكثف المتواصل عنه والتوجه بالسؤال عنه لدى كافة المسؤولين العسكريين والقادة.

.. بدوري؛ ما زلت أذكر - مثلك تماماً - ذلك الموقف الغريب الذي حدث عندما كنا نقوم بالعبور إلى أرض الوطن.. مع الآلاف المؤلفة من العائدين.. وما يحيط بنا من أصوات متباينة.. وكنت حينها أتأبط ذراعك ونسير معا بين آلاف العائدين.. عندما حانت التفاتة منا في نفس الوقت.. وفي نفس اللحظة.. كنا نصرخ معا ونحن نركز أبصارنا في ناحية معينة:

إنه «حسن الأخرس»..

وعند عودتنا إلى أرض الوطن من جديد.. رحت بدورك تلملم أشلاء نفسك المنهارة وأفكارك المبعثرة وأوراقك المتناثرة.. لكي تبدأ الحياة من جديد على أرض الوطن بعد تلك الرحلة الطويلة الشاقة من سنوات العذاب والغربة والمعاناة.

* * *

.. الأيام والسنون تمر سريعة سريعة.. وثمة أمور شتى قد حدثت

بعد عودتنا من الشتات والغربة.. من تونس إلى أرض الوطن.

بدورك؛ فلقد حاولت أن تحتفظ بكل الذكريات التي كانت؛ بحلوها ومرها.. ورحت تبدي من النشاط الفكري والعطاء الأدبي والإثراء في مجال الشعر والنثر الكثير الكثير.. فلقد قمت بدورك بإصدار أعمالك الكثيرة في مجال الشعر وذلك على شكل دواوين شعرية رائعة.. كان أولها بعنوان: «جميلة».. الذي لم تلبث أن قمت بإتباعه بديوان آخر لا يقل عنه روعة وعظمة.. وكان بعنوان: «فلسطين».. وثالث بعنوان «يافا».. وثمة ديوان رابع بعنوان: «الحنين إلى الوطن»، وخامس بعنوان: «العودة إلى الوطن».. وسادس بعنوان: «عودة ميمونة»، ولم تنس أن تتبع كل هذه الدواوين بديوان آخر بعنوان: «حسن الأخرس».. وآخر بعنوان: «الحب يموت مرتين».. وكان النجاح حليفك المطلق في كل ديوان تقوم بإصداره ونشره.. مما أتاح لك المكان والمكانة اللائقة في المحافل الأدبية المختلفة وبين الأدباء والشعراء المبدعين المميزين.

.. لعلك أيضاً ما زلت تذكر وبشكل جيد تلك الحافلة التي كانت قد توقفت في مكان قريب بعض الشيء من منزلك في ذلك اليوم القريب.. فثمة مجموعة من الأطفال والصبية كانوا يندفعون نحو منزلك وهم يزفون إليك نبأ تلك الفتاة الجميلة التي كانت تسأل عنك وعن منزلك..

كنا يومها - أنا وأنت - نجلس معا كالعادة في باحة منزلك المتواضع، وثمة نقاش وحوار هادئ يدور بيننا حول ذكريات رحلة المقاومة الطويلة ومشوار الثورة الطويل الذي عشناه معا .. مشوار البندقية من جانبي.. والقلم من جانبك.

تقاطر الأطفال إلى حيث كنا نجلس وهم يتضاحكون ويتدافعون ويتمتمون .. ويتغامزون:

- هناك امرأة جميلة تسأل عنك يا عم «أبو فلسطين»..

استرعت انتباهك، وانتباهي، هذه العبارة بشكل غريب! ورحت تتساءل في سرك، كما هو الحال بالنسبة لي:

«أي امرأة تلك التي جاءت لتسأل عنك وأنت الذي لم يسأل عنك أحد، سواءً أكان رجلاً أو امرأة، طوال المدة الطويلة الماضية..

.. ما هي سوى لحظات يسيرة؛ حتى كانت الفتاة الجميلة تتهادى نحونا.. وقد أرشدها كما يبدو بعض الأطفال إلى حيث كنا نجلس معا.. وما إن وقع بصرك وبصري على الفتاة الجميلة حتى كنت تجحظ بعينيك وتفتح فاه الدهشة عن آخره وأنت تتمتم بما يشبه الهمس.. وهذا بالطبع ما حدث بالنسبة لي أيضاً .. فرحنا نهتف معا مأخوذين، وقد استولت الدهشة على كلينا:

- من؟! «يافا»!

لقد كانت هي بالفعل.. «يافا» بشحمها ولحمها.. الفتاة اليافعة..

الشاعرة القديرة..

رحت تتساءل في سرك:

«كيف حدث هذا؟! كيف وصلت الفتاة إلى هنا؟! متى؟! وأين؟! ولماذا؟! فيا لها من مفاجأة غريبة حقاً!

.. ولم تلبث تلك الهمهمات والهمسات الداخلية أن ظهرت على السطح.. ورحت تكررها بصوت هامس تناهى إلى مسامعي ومسامع الفتاة الجميلة.

.. فلا بد أنك ما زلت تذكر وبشكل جيد ذلك اليوم الذي أطلت فيه الفتاة الشاعرة «يافا» وذلك بعد طول غياب.

وكم كانت سعادتك بها وبلقائها من جديد.. فلقد كان الأمر بمثابة مفاجأة عظيمة بالنسبة لك.. ولي..

.. ولم تلبث الفتاة الجميلة أن ابتسمت ابتسامة عريضة وهي تمد يدها نحوك لكي تصافحك.. وتصافحني.

رحت بدورك تتأمل الفتاة الجميلة وكأنك لا تصدق ما تراه عيناك..

راحت الفتاة تهتف برقة وعذوبة بما يشبه الهمس:

– نعم.. إنها أنا فعلا.. «يافا» وأنا أعلم جيداً أن هذا الأمر يعتبر بمثابة المفاجأة الغريبة.. ولعلك تتساءل في سرك.. كيف وصلت بدوري إلى هنا؟! متى؟! لماذا؟! وكيف؟! فلا تتعجل الأمور يا سيدي هكذا.. فسوف تعرف كل شيء بعد قليل.. وسوف أخبرك

بأن وصولي إلى أرض الوطن وإليك هنا.. ليس هو المفاجأة الوحيدة في الأمر.. فثمة مفاجأة أخرى أدخرها لك.. وسوف تعرفها الآن.. فاصبر قليلاً يا سيدي.. وكل ما عليك هو أن تتمالك أعصابك فحسب..

فسوف أغادركما الآن لكي أرسل لك بالمفاجأة الجديدة الأخرى.. وأوصيك مرة أخرى بأن تتمالك أعصابك بشكل جيد.

.. ما زلت أذكر، وأنت كذلك، كيف كانت فتاة أخرى تقترب منا رويداً رويداً.. وراح كلانا يفتح فاه الدهشة عن آخرها عندما وقعت أبصارنا على الفتاة الأخرى!

هتفنا معا بصوت واحد من جديد، وقد استولت علينا الدهشة:

– من؟! «فلسطين»!

كانت الفتاة تتهادى في مشيتها وهي تقترب منا.. وثمة ابتسامة عريضة جذلى تغطي محياها.. وما لبثت أن هتفت بسعادة وسرور:

– نعم.. «فلسطين»..

عشرات.. بل مئات الأسئلة راحت تتدافع في مخيلتك ومخيلتي.. فكيف؟! متى؟! أين؟! ولماذا؟!

.. راحت الفتاة تهمس بسعادة:

– لكما الحق.. كل الحق في كل تلك التساؤلات التي تناوشكما.. وسوف تعرفون الإجابة عليها جميعاً بعد قليل..

فأنا أعرف بأن عودتي إلى أرض الوطن وإليكما بمثابة المفاجأة الغريبة حقاً.. ولكن؛ لتعلما جيداً أن هذه المفاجأة ليست هي المفاجأة الوحيدة.. أو الأخيرة فحسب.. فثمة مفاجأة أخرى سوف تصلكما بعد قليل! فسوف أغادركما الآن لكي أرسل لكما المفاجأة الجديدة.

استبد بنا الذهول.. ولم يتفوه أحدنا بأي حرف ولم ينبس أحدنا ببنت شفة.. ووقفنا وكأن على رؤوسنا الطير.

وما هي سوى لحظات يسيرة.. حتى كانت المفاجأة الجديدة تتهادى نحونا..

لم تكن فتاة في هذه المرة.. بل كانت أمراً آخر لم نتوقعه بالمطلق.. وراح كلانا يهتف بصوت واحد:

- من؟! «حسن الأخرس»!

كانت مفاجأة غريبة ورهيبة حقاً.. بل كانت مفاجأة من النوع الثقيل جداً.. فها هو «حسن الأخرس» بشحمه ولحمه وزيه العسكري المميز المعهود يظهر أمامنا من جديد.. وذلك بعد طول غياب..

.. كيف؟! متى؟! أين؟! ولماذا؟! آلاف الأسئلة تدور في خاطرك وخاطري؛ والتي لم نجد لها الجواب الشافي أو مجرد الجواب.

وقف «حسن الأخرس» بابتسامته المعهودة وحركاته وهمهماته ودمدماته المألوفة وهو يرحب بنا على طريقته.. وما هي سوى

لحظات يسيرة.. حتى كان يلوذ بالفرار والمغادرة وهو يلوح لنا بكلتا يديه مودعاً إيانا!

بالفعل.. فلقد كانت مفاجآت متتالية؛ تلك التي كانت قد حدثت على التوالي سراعاً.. ظهور «يافا».. تلاه ظهور «فلسطين».. ثم أخيراَ ظهور الشاب «حسن الأخرس»..

ويبدو أن مفاجأة ظهور «حسن الأخرس» لم تكن الأخيرة.. فما هي سوى لحظات يسيرة؛ حتى كانت «يافا» تظهر وتعود من جديد.. ولكنها في هذه المرة لم تظهر وحدها.. بل كان يظهر إلى جانبها شاب وسيم وبرفقتهما طفلة صغيرة جميلة!

أقبلت «يافا» نحونا من جديد.. كانت تسير وإلى جانبها شاب وسيم وهو يتأبط ذراعها بسعادة.. وسط علامات الدهشة والتساؤل التي سيطرت عليك.. وعليّ..

.. ولم يلبث العجب والتساؤل أن ازداد قرعاً وصخباً.. بعد أن فتحت الفتاة «يافا» فمها للحديث وهي تتقدم منا بابتسامتها الجذلى..

.. راحت الفتاة «يافا» تقترب من مكان تواجدنا أكثر فأكثر وهي تبتسم تلك الابتسامة العريضة التي كانت بعرض الكون وهي تتمتم بما يشبه الهمس:

-إنه.. زوجي..

.. أعرف بأنه قد أصابك لحظتها شعور غريب.. يحمل مليون

معنًى ومعنى.. ذلك الشعور الذي طغى عليك ملوناً بكل ألوان الطيف من المشاعر والأحاسيس والخواطر المتضاربة.. وراحت العبارة الرهيبة تطن في أذنيك وأعماقك بقوة ورهبة:

«إنه.. زوجي»..

في خضم تلك المشاعر المتباينة المتلاطمة.. وجدت نفسك تكرر وبدون إرادة وكأنك تهذي وفي أعماق نفسك المنهارة:

«الحب يموت مرتين»!«الحب يموت مرتين»!

فأنا كنت أدرك وبشكل جيد أنك كنت قد تعلقت بالفتاة الشاعرة «يافا» في حينه.. بعد أن كنت قد فقدت حبيبتك الأولى والتي تمثل حبك الأول «جميلة».. والتي فقدتها عندما استشهدت ونحن في طريق المغادرة من جهنم الحرب في الأردن إلى لبنان.. وبعد أن فقدت «فلسطين» أيضاً عندما تركتها في بيروت عند مغادرة لبنان قسراً إلى تونس.

أنا أعرف وأدرك جيداً؛ أنك كنت تود تعويض حب «جميلة».. وحب «فلسطين» بحبك لـ«يافا».. ولكن؛ ها هو الحب الجديد يتهالك أيضاً.. وها هي «يافا» قد اختارت رجلاً آخر.. ويبدو أن «لعنة الحب» تترصدك وتتبعك أينما كنت وأينما حللت.. وهذا ما دعاك لأن تردد وبدون وعي أن:

«الحب يموت مرتين»!«الحب يموت مرتين»!

فحقاً .. الحب لا يموت مرة.. بل يموت أحياناً مرتين..

وها هو المشهد الغريب الذي يصاحب العبارة الأغرب يتراءى لك في كل لحظة.. عندما كانت الفتاة «يافا» تتقدم منك بتؤدة وابتسامتها الجذلى تغطي محياها وهي تهتف بسعادة عندما كانت تقدم لك الشاب للتعارف:

» إنه.. زوجي «..

أنا أشعر وبشكل جيد أن هذه العبارة قد غزت كيانك واستولت على مشاعرك ونفذت إلى أعماق أحاسيسك تماماً كما هو المشهد الذي كان.

لم يكن بوسعي يومها أن أواسيك.. أن أخفف عنك.. فمثل ذلك الموقف لا تجدي فيه المواساة نفعاً.. ولن تخفف كل كلمات الدنيا من آثاره على النفس والروح والوجدان.. فلقد انهارت فجأة وبدون مقدمات كل تلك القصور الوهمية التي كنت قد بنيتها في مخيلتك وتفكيرك.. وقد صارت سراباً بعد أن تهاوت وتلاشت.

.. أذكر جيداً يومها – كما لا بد أنك تذكر ذلك وبشكل جيد مثلي – أنه لم يكن بوسعك سوى أن ترسم على وجهك ابتسامة مفتعلة، وأنت تمد يدك المرتجفة لتصافح الشاب، وتهمس بصوت كأنه يأتي من وراء الجبال أو من داخل القبور:

–مبروك..

.. واكتفيت بهذه الكلمة المقتضبة المفرغة من كل معنى.. ولم تتنبه إلى أنك لم تقل مثل تلك الكلمة المفرغة للفتاة «يافا»..

أنا أعرف جيداً بأنك لم تستطع أن تستمع لرد الشاب.. فكل ما وصلك من حديثه الذي كان يوجهه لك.. كان عبارة عن همهمات ودمدمات لا معنى لها ولا قيمة.. ففي نفس تلك اللحظة كنت تشعر فيها بالإرهاق الشديد والدوار والغثيان.. وتكابد خلالها شتى المشاعر والخواطر والأحاسيس.. وتكاد أن تسقط على الأرض مغشياً عليك أو ميتًا.. لاحظت بدوري كل هذا وذاك.. كما لاحظت العرق الغزير الذي كان ينهمر من شتى أنحاء وجهك وتيبس الكلمات والحروف في حنجرتك وارتعاش جسدك وأطرافك بشكل غريب..

يومها.. رحت أقترب منك أكثر.. لكي أكون إلى جانبك ولمساعدتك.. والاستعداد لما بعد تلك المرحلة.. والخشية من حدوث إغماءة قوية وسقوط على الأرض.. ولكنك بالكاد استطعت أن تتمالك نفسك وأن تستعيد توازنك.

ثمة أمور عديدة تحدث للمرء؛ لا يمكن أن يقوم بترجمتها إلى حروف وكلمات.. لأنها أسمى وأقوى وأعظم من كل الحروف ومن كل الكلمات.. ولأنها تكون بمثابة مشاعر عميقة وأحاسيس رقيقة.. وخواطر يستحيل ترجمتها إلى حروف وكلمات.. وهذا ما كان قد حدث معك بالضبط.

فأنت لم تشكُ.. لم تتألم.. لم تبك؛ فكل ما استطعته هو كبت مشاعرك وسجن أحاسيسك وقتل خواطرك في مهدها.. فأنت كنت تدرك وبشكل جيد أن لا جدوى من الشكوى أو الألم أو البكاء.. فلقد كانت الحساسية المفرطة لديك تفرض عليك عدم تقبل المواساة؛ لأنك كنت تشعر دائماً أن المواساة من الآخرين هي بمثابة شهادة وفاة تثبت ضعفك وهزيمتك واندحارك.. وأنت الذي كنت ترفض دائماً وبشدة أن تهزم ولو لمرة واحدة..

حقاً .. كانت مفاجأة.. بل مفاجأة من الوزن الثقيل جداً.. ولست أدري بدوري كيف أن الفتاة «يافا» لم تتنبه لحظتها لما وصلت إليه حالتك النفسية والصحية على حد سواء من تدهور رهيب.. فراحت تكمل الهمس الذي يشبه قرع الطبول بالنسبة لك:

-وها هي طفلتنا.. «فلسطين»!!

مفاجآت.. مفاجآت.. مفاجآت متتالية.. حيالها لم يكن بوسعنا سوى التزام الصمت.. ولم يتفوه أحدنا بحرف ولم ينبس أحدنا ببنت شفة.. فكنا نحبس أنفاسنا ونتلفت حولنا وكأننا أصبنا بتبلد المشاعر والأحاسيس.. وكأننا بتنا في انتظار مفاجأة جديدة أخرى.

بالكاد؛ استطعت بدورك أن تتمتم بما يشبه الهمس وأنت توجه الحديث للفتاة وكأنك تريد أن تنقذ نفسك من بحر الأفكار المتلاطم متجاوزاً المحنة:

-إذن.. فأنتم جميعاً هنا.. أنت و«فلسطين» و«حسن الأخرس»!

راحت الفتاة «يافا» تعقب على عبارتك تلك، وهي ما زالت تبتسم تلك الابتسامة العريضة الجذلى:

-ولا تنس أن هنا أيضاً «فلسطين» الصغيرة.. طفلتي الجميلة هذه.. وهذا الشاب الوسيم.. زوجي.

بدورك.. رحت تومئ برأسك بعدة حركات وكأنك تريد تأييد حديثها.. أو كأنك كنت تريد أن تثبت عجزك عن النطق.. أو لعله الرفض المطلق لكل ما يحدث.. وفي النهاية؛ وبالكاد.. استطعت أن تنطق ببعض الحروف المبعثرة:

-حقاً.. إنها مفاجآت متتالية غريبة.. ولكن؛ هل يمكن أن أراكم جميعاً هنا الآن في نفس اللحظة مجتمعين من حولي؟! أقصد أنت و«فلسطين الكبيرة» و«حسن الأخرس»..

ابتسمت الفتاة «يافا» ابتسامة عريضة.. وصلت إلى حد الضحك المرتفع.. وكادت أن تصل إلى حد القهقهة المجلجلة.. هتفت:

-مستحيل .. إن ذلك مستحيل!

بدورك.. فقد بادرتها متسائلاً بتعجب:

-ولماذا؟!

هتفت الفتاة برقة وعذوبة:

-لأن ذلك وببساطة متناهية.. مستحيل!

-لم أفهمك.. فكيف من المستحيل أن يجتمع كل هؤلاء في نفس الوقت؟!

ردت الفتاة «يافا» وهي تبتسم ابتسامة غامضة غريبة:

-سوف تفهم الأمر وبشكل جيد.. ما عليك سوى أن تنتظر قليلاً..

.. غادرت الفتاة «يافا» المكان وهي تتأبط ذراع زوجها.. الشاب الوسيم بيد وتمسك باليد الأخرى بالطفلة الجميلة «فلسطين الصغيرة».. وغاب الجميع عن الأنظار لبعض الوقت.

ما هي سوى لحظات يسيرة حتى كانت «يافا» تعود للظهور مرة أخرى من جديد.. بينما كانت تحمل بين يديها بعض الأشياء التي كانت قد وضعتها داخل قطعتين من القماش كاللفائف.

.. اقتربت الفتاة منا بما فيه الكفاية.. وقفت للحظات يسيرة.. راحت تلتقط أنفاسها المتلاحقة.. ابتسمت ابتسامة غريبة وهي تهتف:

-انظر.. أنظر جيدا ماذا يوجد هنا..

راحت الفتاة تفتح اللفافة القماشية الأولى بسرعة.. وبدأت بإخراج محتوياتها من الأشياء.. ملابس نسائية.. باروكة شعر.. ولم تلبث الفتاة أن قامت بارتداء تلك الملابس ووضع «باروكة الشعر» على رأسها.. فأصبحت.. «فلسطين»..

فغرنا أفواه الدهشة معا؛ أنا وأنت، وهتفنا بصوت واحد في نفس

الآن:

-من.. «فلسطين«؟!

.. هتفت الفتاة برقة وعذوبة والابتسامة الطاغية تغطي محياها:

-نعم.. أنا «فلسطين»..

رحت بدورك، وبالكاد، تنطق بعض الحروف.. والكلمات:

-هذا رائع جداً بالفعل.. فهي ملابس وأشياء «فلسطين».. ولكن؛ أين هي «فلسطين» ذاتها؟!

ضحكت الفتاة بدلال وعذوبة.. هتفت:

-هذه هي بالفعل ملابس وأشياء «فلسطين».. وها هي «فلسطين» ذاتها ماثلة أمامكم..

.. رحنا معا نتلفت حولنا في كل ناحية؛ كنا نبحث بأنظارنا عن «فلسطين».. دون جدوى..

ضحكت الفتاة.. حتى الثمالة.. ومن بين الضحكات والقهقهات هتفت برقة وعذوبة:

-إنها أنا.. فأنا هي «فلسطين»!

كدنا أن نتهاوى معا إلى الأرض مغمًى علينا لهول المفاجأة وغرابة الموقف..

راحت الفتاة «يافا» أو «فلسطين» تقوم بفتح اللفافة الأخرى بسرعة.. ولم تلبث أن أخرجت من داخلها بعض الملابس العسكرية

المميزة والأشياء الأخرى.

هتفنا معا:

- إنها ملابس وأشياء «حسن الأخرس»!

هتفت الفتاة برقة وسحر غامض..

- حقاً.. فهي ملابس «حسن الأخرس».

رحت بدورك تتمتم بما يشبه الهمس وأحلام اليقظة:

- ولكن.. أين «حسن الأخرس» ذاته؟!

لم تلبث الفتاة أن اندفعت ناحية الثياب العسكرية المميزة.. وراحت ترتديها بسرعة.. وما إن أتمت ارتداء الزي العسكري بالكامل؛ حتى بدت وكأنها «حسن الأخرس» تماماً.. ثم راحت تتمتم وتدمدم ببعض الحروف المبهمة والكلمات الغامضة؛ وبدت بذلك وكأنها تتحدث إلينا بلغة الإشارة.. حركات الصم والبكم.. وكأنها «حسن الأخرس» ذاته بالفعل..

جحظت أعيننا وبدونا كالبلهاء.. ووقفنا جامدين وكأن أجسادنا قد قدت من صخر صلد.. ولم ندر لحظتها.. هل نضحك أم نبكي؟! فوجدنا أنفسنا نبكي لدرجة الضحك.. ونضحك لدرجة البكاء....

لم تلبث الفتاة أن هتفت بنا وهي ما زالت ترتدي الزي العسكري المميز وتتقمص شخصية «حسن الأخرس«:

-ولم العجب يا سيدي بالله عليك؟! فهل نسيت تلك العبارة

التقليدية التي كنت تتفوه بها دائماً وتوجهها لي:

«يا لك من شاعرة كبيرة.. ويا لك من ممثلة قديرة»!

فأنا لا أظن أنك قد نسيت تلك العبارة الخالدة بالمطلق..

.. لقد كانت البداية من بيروت.. يوم أن قمت بدورك وبصحبة الرفاق من رجال وشباب المقاومة بالمغادرة.. وبعد أن قمت بوداعي قبيل اللحظات الأخيرة من المغادرة.. كنت بدوري قد أعددت العدة من قبل لمثل هذه اللحظات العصيبة.. كنت قد أعددت الخطة بإحكام وسرية مطلقة ولم أطلع على الأمر أي أحد بالمطلق.. فلم يكن بوسعي البقاء في بيروت وحيدة بعد أن شعرت بأنني سأفقدك إلى الأبد كآخر شخص مهم في حياتي تربطني به علاقة قوية.. هي مزيج من الأبوة والأخوة والصداقة..

كنت قد حصلت على الأوراق الثبوتية الخاصة بـ«حسن الأخرس».. وكذلك زيه العسكري المميز، الذي كان يلائمني تماماً من حيث الحجم والشكل.. وذلك بعد استشهاد الشاب.. فتقمصت شخصيته واندسست بين الأمواج البشرية الهائلة لرجال المقاومة الذين كانوا يستقلون السفينة الفرنسية الضخمة في طريق المغادرة إلى تونس.. وساعدني على تقمص شخصيته أنني لم أكن بحاجة لأن أضع اللحية والشارب! ذلك ببساطة لأن الشاب كان «أمرد».

وقد قمت فيما بعد مرة أخرى بتقمص نفس الدور ونفس

الشخصية... شخصية «حسن الأخرس» في تونس.. وهذا ما جعلني أصمم على أن أشاركك نفس الحجرة المشتركة دون سواك.. حتى لا يكتشف أحد أمري.. وحتى لا أكون، كامرأة في ثوب رجل، أقوم بمشاركة أي رجل آخر في الحجرة المشتركة.. وهذا ما أتاح لي الفرصة وبشكل جيد للخروج وتقمص شخصية أخرى.. هي شخصية الشاعرة «يافا» التي كانت تنشر أشعارها في الصحف والمجلات والنشرات الدورية.. والتي كانت تلقي بقصائدها في تلك المنتديات والمهرجانات والاحتفالات المختلفة على مدار الوقت.. والتي لم يكن لها أي وجود حقيقي على أرض الواقع.. بل كنت أنا شخصياً من يقوم بتقمص تلك الشخصية! ليس هذا فحسب.. بل عدت من جديد لتقمص شخصية الشاب «حسن الأخرس» مرة ثالثة في طريق العودة لأرض الوطن..

فهل تراني قد أجدت التمثيل بشكل جيد؟ وذلك بعد أن تقمصت تلك الشخصيات في نفس الآن؟! أعني شخصية الشاعرة.. «يافا» وشخصية الشاب «حسن الأخرس«؟!

.. ولم تلبث بدورك أن رحت لحظتها تتمتم بما يشبه الهمس الحالم:

- يا لك من شاعرة كبيرة! ويا لك من ممثلة قديرة!

لقاء.. ووداع

.. ما هي سوى أشهر قلائل.. حتى كنا نفاجأ معا – أنا وأنت – بوصول الفتاة «فلسطين» إلى حيث كنا نجلس معا في باحة منزلك كالعادة ونحن نجتر الذكريات القديمة بحلوها ومرها كما هي عادتنا الدءوبة.

كانت الفتاة تنتصب أمامنا دون جلبة أو ضوضاء أو صخب أو تدافع للأطفال والصبيان.. فقد وصلت الفتاة إلى المكان بمفردها برفقة طفلتها.

ليس هذا هو الأمر الوحيد في الموقف.. فهناك ثمة أمر آخر أثار دهشتنا وتساؤلنا.. فلقد كدنا أن نعترف معا بأنها ليست «فلسطين» التي عرفناها من قبل.. فهذه الفتاة تتشح بالسواد من أخمص قدميها وحتى قمة رأسها! ليس هذا فحسب.. بل كان هناك أمر آخر مختلف أيضاً..

فالشاب الوسيم – زوجها – لم يكن يرافقها ويتأبط ذراعها

كالعادة.. ولكن الأمر الوحيد الذي كان مقنعاً لنا بأنها هي فعلاً «فلسطين».. هو مرافقة الطفلة الجميلة الصغيرة «فلسطين» لها.

نهضنا معا – أنا وأنت – من أماكن جلوسنا.. ورحنا نرحب بالفتاة مهللين مرحبين بها وبوصولها إلينا من جديد.. رغم علامات الدهشة والغرابة التي استولت على محيا كل منا – أنا وأنت بالطبع – قمنا بدعوتها للجلوس.. فجلسنا جميعا.. وراحت الفتاة تتمتم بكلمات وحروف متداخلة.. بينما العبوس والتجهم يغطيان محياها من خلال الحجاب الذي كانت تغطي فيه وجهها..

لقد احترنا في أمرنا.. ولم يكن بإمكاننا أن نفهم سبب هذا التجهم والعبوس الرهيب.. الذي كان يستولي عليها، ولا سر اتشاحها بالملابس ذات اللون الأسود.. وعدم وجود الشاب الوسيم زوجها إلى جانبها..

ثمة دموع غزيرة حارقة كانت تنساب من عيني الفتاة.. راحت تتمتم بذلة وانكسار واضطراب:

«لقد استشهد زوجي»..

.. وبدورنا – أنا وأنت – فقد جحظت عيوننا من الغرابة والعجب لما تفوهت به الفتاة.. بينما راحت الفتاة تكمل الحديث:

– .. لقد استشهد زوجي منذ أيام قلائل..

عندما تفوهت الفتاة «فلسطين» بهذه العبارة.. أصابتنا الدهشة

واستولت علينا الغرابة فصمتنا وكأن على رؤوسنا الطير..

مرة أخرى.. وجدت في نفسك الجرأة والقوة لأن تتمتم كالحالم:

- رحمه الله.. رحمه الله..

راحت تقص علينا كيفية استشهاد زوجها.. ذلك الشاب الوسيم الذي كان يتأبط ذراعها دائما وهو يبتسم ابتسامة الأمل والحياة العريضة.. وراحت تذكرنا بتلك العملية الاستشهادية التي كانت قد حدثت داخل الكيان الغاصب المحتل.. داخل فلسطين الحبيبة السليبة.. وفي عقر دار العدو؛ وفي أكبر مدينة للعدو.. والتي حدثت منذ أيام قلائل.. والتي استشهد فيها شاب مجهول الهوية..

أخبرتنا بأن ذلك الشاب الاستشهادي المجهول كان هو زوجها.. الذي كان قد توجه إلى داخل فلسطين المحتلة، وكله تصميم على القيام بعملية استشهادية نوعية..

راحت الفتاة تقص علينا كيف قام الشاب - زوجها - بالمهمة، وذلك حسب الخطة التي أعدها سلفاً ولم يطلع عليها أحد سواها.. وكيف أنه استطاع الدخول إلى كبرى المدن الفلسطينية المحتلة، التي أقام العدو على أنقاضها مدينة جديدة باسم جديد.. وجعل منها عاصمة للدولة العبرية المحتلة.. فأسماها «تل أبيب»، التي أطلق عليها الشاب كما غيره الكثيرون اسم «تل الربيع».. رفضاً وتحدياً للاسم العبري للمدينة الذي أطلقه العدو عليها..

كانت تحدثنا عن كيفية استطاعة الشاب الوسيم اختراق الحواجز العسكرية للعدو.. الواحد تلو الآخر.. بينما كنا نسترجع معا في ذاكرتنا شريط ذلك المشهد الذي كنا قد شاهدناه على شاشات التلفاز قبل أيام قلائل لشاب فلسطيني مجهول الهوية قام بعملية استشهادية بطولية وسط المدينة الكبيرة.

.. وعلى خفقات قلوبنا الواجفة ومتابعتنا لشريط الذكريات الذي كان يدور في أذهاننا للعملية الاستشهادية البطولية للشاب المجهول.. كانت الفتاة تتحدث تحكي.. تقول.. وتسرد على مسامعنا كل التفاصيل الدقيقة للعملية الاستشهادية البطولية الجريئة التي قام بها الشاب الوسيم.. زوجها.

رحت بدورك تحاول مواساتها؛ ورحت أشاركك المهمة العويصة.. ورحنا نؤكد لها بأن هذا الشاب الشهيد يعتبر بطلاً من أبطال الجهاد والمقاومة ضد العدو المحتل.. وهو بذلك يكون قد ضرب مثلاً أعلى لمفهوم الشهادة والاستشهاد.. وأنه يعتبر بمثابة القدوة الحسنة لكل شباب فلسطين الأحرار..

.. رويداً رويداً.. هدأت الفتاة.. وبالتدريج استطاعت أن تسترد أنفاسها اللاهثة.. ولم يكن بوسعك أن تضم الفتاة «فلسطين الكبيرة» إلى صدرك وقلبك.. وأن تقبلها بعطف بحنان، وكم كنت بدورك تود فعل ذلك! فرحت عوضاً عن ذلك تضم «فلسطين» الطفلة إلى

صدرك وقلبك.. وتمطرها بالقبلات وتمسد شعرها بلطف ورقة وحنان..

أخيراً؛ وبعد طول صمت ران علينا جميعاً؛ نطقت «فلسطين الأم» مرة أخرى ببعض الحروف والكلمات التي كان لها رنة معينة ووقع غريب على كلينا..

.. طلبت منك أن تبقي «فلسطين الطفلة» برفقتك لبعض الوقت.. ربما بعض الساعات القلائل.. والتي لن تتجاوز اليوم الواحد.. لأنها تود أن تقوم بمهمة ضرورية هامة خاصة خلال تلك الساعات؛ وسوف تعود حال انتهاء المهمة لاسترداد طفلتها من جديد.. شاكرة لك حسن الصنيع.. فهي لا تأتمن أحدًا سواك على طفلتها..

ولم يكن أمامك من خيار.. سوى الموافقة على مطلبها رغم الغرابة والتساؤل الشديد الذي كان يدور في ذهنك وفكرك؛ وذهني وفكري أيضاً..

نهضت الفتاة «فلسطين الكبيرة» من مكانها.. مدت بكلتا يديها نحو الطفلة «فلسطين».. راحت تضمها إلى صدرها وقلبها بقوة وحنان.. راحت تمطرها بالقبلات الحارة.. وهي تجهش بالبكاء المكتوم الذي ما لبث أن أصبح مدوياً صاخباً.. وشعرنا – أنا وأنت – وكأنها كانت تقوم بوداع طفلتها الوداع الأخير.. الذي لا لقاء بعده..

صافحتني بقوة وحرارة وانفعال.. وهي ما زالت تحمل الطفلة إلى صدرها وقلبها.. تتشممها.. تقبلها.. وقامت – خلسة – بدس ورقة في يدي.. وهمست في أذني ببعض الكلمات السريعة.. بينما كانت تتوجه ناحيتك.. وأعتقد جازماً بأنك كنت قد لاحظت تلك الحركة التي قامت بها الفتاة.. ولكنك لم تولِ الأمر شديد انتباه.. ولم تعلق عليه.. ولم تسألني بخصوصه شيئاً.

.. ولم تلبث الفتاة أن اندفعت ناحيتك.. ولكنها لم تقم بمصافحتك.. بل إنها قامت وبحركة دراماتيكية مفاجئة بطبع قبلة حارة ساخنة ممتزجة بالدموع الملتهبة على جبينك.. وهي تتمتم بحروف وكلمات هامسة مختنقة بالحشرجة والخلجات والعبرات:

كم أحبك أيها الرجل!

كم أحبك أيها الرجل!

ولم تلبث أن فرت مولية من المكان لا تلوي على شيء.. وهي تردد بعض الحروف والكلمات المتلاحقة..

كم أحبك أيها الرجل!

كم أحبك أيها الرجل!

«فلسطين» أمانة في رقبتك..

«فلسطين» أمانة في رقبتك..

الرسالة

لعلك ما زلت تذكر.. بل لا بد أنك ما زلت تذكر وبشكل جيد ذلك المشهد الذي كان بيننا – أنا وأنت – وبين الفتاة «فلسطين الكبيرة».. لحظة أن قامت بدس الورقة الغريبة في يدي، وراحت تهمس في أذني ببعض الكلمات السريعة وهي تودعنا وكأنه الوداع الأخير..

لقد همست في أذني لحظتها ألا أقوم بالمطلق بفتح تلك الرسالة التي قامت بدسها في يدي سوى بعد يوم أو يومين.. على أن يتم ذلك بعد أن.

.. وذلك على أن يتم ذلك بعد أن أشاهد على شاشات التلفاز تلك العملية الاستشهادية البطولية الجديدة التي كانت قد قامت بها فتاة مجهولة وسط المدينة الفلسطينية الكبيرة المحتلة.. وهي نفس المدينة ونفس المكان الذي كان قد استشهد فيه شاب فلسطيني بعملية استشهادية بطولية قبل عدة أيام!

هل تذكر ذلك المشهد الذي شاهدناه معا مساء أمس؛ بل وشاهده الملايين عبر شاشات التلفاز عن تلك العملية الاستشهادية البطولية التي قامت بها فتاة مجهولة داخل المدينة الكبيرة في الكيان المحتل؟!

إنها هي.. نعم.. «فلسطين».. «فلسطين» هي نفسها التي قامت بتلك العملية الاستشهادية البطولية الجديدة.. وفي نفس المكان الذي استشهد فيه زوجها الشاب الوسيم قبل عدة أيام..

فلقد كانا قد تعاهدا على ذلك قبل أن يقوم بتلك العملية الاستشهادية البطولية.. وعاهدته أن تحذو حذوه.. وأن تلحق به.. سريعاً..

وها أنا بدوري أسلمك تلك الرسالة التي كانت قد دستها الفتاة «فلسطين» في يدي لحظة أن كانت تقوم بوداعنا.. «الوداع الأخير»..

وها هي الفتاة «فلسطين» تخاطبك شخصياً في رسالتها بآخر الحروف والكلمات..

وتقول لك:

سامحني.. أرجوك أن تسامحني.. وأرجو أن تسمح لي بأن أقول لك.. «أبي»... بل «أبي الحبيب».. فسامحني يا أبي الحبيب..

أنا أعرف بأن قلبك الطيب سوف يسامحني ويغفر لي..

كنت قد أخفيت عنك الكثير والكثير من الأمور.. في مراحل حياتي الطويلة إلى جانبك ومعك.. ولكني - لكي أريح ضميري

- أطلعتك عليها كلها قبل أيام قلائل.. وأنا أعرف جيداً كم سببت لك من الآلام النفسية.. فها قد حانت ساعة الفراق.. وحانت ساعة الاعتراف.. سأعترف لك بكل شيء.. شريطة أن تسامحني.. وأعرف جيداً بأنك سوف تسامحني..

فأنا حقاً هي «فلسطين».. ابنة تلك المرأة التي كنت بدورك قد أحببتها بجنون ذات يوم.. أمي «جميلة»..

وقد قمت بدوري بتقمص شخصية الفتاة «يافا».. «يافا» الصحفية.. الشاعرة.. الأديبة التي عرفتها..

.. وأعترف أيضاً بأنني أنا أيضاً.. «حسن الأخرس».. نعم.. أنا «حسن الأخرس» الذي كان قد بعث من جديد.. فلقد تقمصت شخصيته بشكل جيد.. وقمت ببعثه من جديد.. بعد أن كنت قد حصلت على بطاقة الهوية والأوراق الثبوتية الأخرى خاصته.. وذلك بعد استشهاده.

ولقد قمت بالاعتراف لك بكل هذا.. ولكني هنا أعترف لك من جديد به.

فأرجو أن تسامحني.. وأن تغفر لي.. وسوف أكون صريحة معك أكثر.. فلا تعجب مما سأقوله لك..

فأنا أعرف وأدرك جيداً أنك قد أحببت الفتاة «فلسطين» التي كانت جزءاً من حبيبتك التي استشهدت «جميلة».. ولأنك كنت تجد

حبيبتك في شخصيتي.. شخصية «فلسطين»، وأنا أعرف جيداً بأنك قد أحببت «فلسطين» كثيراً.. ولكنك لم تصارح بهذا الحب أحدًا.. وقد أخفيته في نفسك عن نفسك..

وأعرف جيداً بأنك قد أحببت الفتاة «يافا» كثيرا.. كحبك لـ«فلسطين».. ولـ«جميلة» ولم تصبني الغيرة من هذا.. ذلك ببساطة.. لأن «يافا» كانت هي أنا.. ولأنني كنت «يافا»..

وسأعترف لك بسر آخر احتفظت به لنفسي طوال تلك السنين الطويلة.. بأن «فلسطين» كانت تحبك كثيرا.. وأن «يافا» أيضاً كانت تحبك كثيرا.. ولكن سواء هذه أم تلك.. لم تعترف بحبها ولم تصارح به أحدًا.. ولم تصارحك به أيضاً..

وسأعترف لك أيضاً بأن هناك شخصًا آخر أحبك كثيرا.. بل كثيراً جداً.. ولا تعجب كثيراً من هذا؛ عندما أقول لك بأن ذلك الشخص هو «حسن الأخرس».. «حسن الأخرس» الذي كنت قد تقمصت شخصيته لوقت طويل..

فسامحني أيها الرجل واغفر لي.. وأنا أعرف جيداً بأنك سوف تسامحني وتغفر لي..

عندما تشاهد المشهد الجديد لتلك العملية الاستشهادية الجديدة للفتاة المجهولة.. فلتعلم جيداً بأنها هي أنا.. أنا «جميلة».. أو «يافا».. أو ذلك الشاب «حسن الأخرس».. أو «فلسطين»..

.. فلا تقل بأن «فلسطين» قد ماتت.. لا تقل ذلك أبداً.. فـ«فلسطين» لم تمت.. لم تمت أبداً.. فهي ما زالت في قلبك وكل القلوب.. في روحك وكل الأرواح..

فكم أحبك أيها الرجل!

ولا تنس.. أنني اليوم أترك ابنتي «فلسطين» أمانة في رقبتك..

وعليك أن تتذكر دائما..

بأن فلسطين أمانة في رقبتك...

«فلسطين» أمانة في رقبتك.. «فلسطين» أمانة في رقبتك..

النهاية.. أم البداية؟

.. هيا انهض من فراشك أيها الرجل العجوز.. فالحكاية لم تنته بعد.. فلا زلنا في البداية.. وما زالت الحكاية في البداية.. فهيا انهض من فراشك وكفاك «تمارضًا»! كفاك «تناوماً»! وكفاك «تماوتاً»! فما زلنا في بداية المشوار.. وما زال المشوار طويلاً.. بل طويلاً جداً.

أتراك قد مللت الكتابة؟ ومللت الحرف والكلم؟ ومللت حمل القلم؟

هل تظن بأن حمل القلم قد أصبح عبئاً ثقيلاً عليك؟ هل تراه قد أصبح ثقيلاً عليك إلى مثل هذه الدرجة؟ أم تراك قد «جبنت» أخيراً عن حمل القلم والكتابة؟

إذا كان هذا هو الحال بالنسبة لك.. فما بالك بالنسبة للأمر لي.. وأنا الذي كنت – وما زلت – أحمل البندقية.. الرشاش والمدفع طوال الوقت؟ فهل حرفك وكلمك وقلمك أصبح من الثقل

الذي يبز ثقل بندقيتي.. رشاشي ومدفعي؟

انهض أيها الرجل العجوز من رقدتك هذه وكفاك كسلاً وتخاذلاً.. فما زلنا نحتاجك.. نحتاج لقلمك.. نحتاج لحرفك!

أم تراك قد جبنت أخيرا.... عن حمل القلم وعن الكتابة؟

انهض أيها الرجل العجوز من رقدتك هذه...

وكفاك كسلا وتخاذلاً.. فما زلنا نحتاج لقلمك.. نحتاج للقلم تماما كما نحتاج للبندقية.. للمدفع..

ما لي أراك تشيح بوجهك عني إلى الناحية الأخرى.. إلى البعيد؟ أتراك تنكرني؟ تنكر معرفتي؟! أم تراك تتجاهلني؟ أم ماذا بالله عليك؟ هل أصابك الصمم؟ هل أصابك العجز حتى بت هكذا لا تسمعني ولا تراني؟

ولكني أرى جيداً حركة أذنيك وهي تتابع حروفي وهمساتي وكلماتي... وأرى حدقات عينيك وهي تتابعني وتدور في محاجرها في كل اتجاه؛ تتابع حركاتي وسكناتي.. وهذا يعني الكثير بالنسبة لي أيها العجوز.. على الأقل؛ هذا يعني أنك ما زلت حياً.. ما زلت تسمع.. ما زلت ترى..

القضية لم تمت.. والمشوار لم ينته.. «فالقضية» ما زالت حية.. والمشوار ما زال طويلاً طويلا.. وبدورك؛ فأنت ما زلت حياً.. فإن كنت تظن بأنك «القضية».. وأن «القضية» هي أنت.. وإن كنت

تعتقد بأنك قد مت لأن القضية قد ماتت وانتهت.. فأنت واهم.. مخطئ في هذا الأمر يا هذا.. فأنت ما زلت حيًّا.. و«القضية» ما زالت حية.

لماذا تعبس هكذا وكأنك تستنكر حديثي وقولي هذا؟!

عليك أن تعود لرشدك أيها العجوز.. وعليك أن تعود إلى الحياة.. «فالقضية» ما زالت تعيش الحياة.. فلا تمت يا هذا حتى لا تموت «القضية».. ولن تموت «القضية» حتى لا تموت أنت.. فهيا انهض من فراشك وكفاك كسلاً وخمولاً! فأنا لم أتعود أن أراك كسولاً وخاملاً في يوم من الأيام.. فدأبك العطاء العظيم من مداد قلمك.. كدأبي في العطاء العظيم من مداد بندقيتي ومدفعي.. فـ«البندقية لي.. والقلم لك».. «المدفع لي.. والقلم لك»..

لقد كانت «شراكة» غير مكتوبة بيننا.. شراكة السير في درب الكفاح.. درب الكفاح الطويل.. واتفقنا - دون أن نتفق - أن نكون رفاق السلاح.. ولا تعجب يا هذا.. فكلانا كان يحمل السلاح.. فأنا كنت - وما زلت - أحمل السلاح الحربي.. أحمل البندقية.. المدفع.. وأنت كنت - وما زلت - تحمل السلاح الكلمي.. وكلاهما سلاح فتاك لا غنًى لأحدهما عن الآخر.. فأنا أعبئ بندقيتي ومدفعي بحرفك وكلمك.. وأنت تعبئ قلمك برصاص بندقيتي ومدفعي.. فلا غنى لهذا عن ذاك.. ولا غنًى

لذاك عن هذا.. فـ«البندقية لي.. والقلم لك».. «المدفع لي.. والقلم لك».

فهيا انهض أيها الرجل العجوز كي تعبئ مدفعي وبندقيتي بحروفك وكلماتك.. ولكي أعبئ قلمك برصاص بندقيتي ومدفعي.. لكي نستأنف المسيرة سوية في المشوار الطويل.. في الدرب الطويل!

ما لي أراك تتصنع «الشخير» كأنك تريد أن توهمني بأنك تغط في سبات نوم عميق؟! أو لعلك تريد أن توهمني بأنه «الموت العميق»!

فأنا أعرف جيداً.. بأنك لست بنائم.. ولست بميت.. وأعرف جيداً بأنك تتابع حركاتي وسكناتي.. وتتابع حروفي وكلماتي.. فلا تتصنع النوم أيها العجوز.. ولا تتصنع الموت.

لا أريد أن توهمني بأنك مللت السير... وكللت عن المتابعة.. وأن المشوار قد أرهقك.. ولم تعد بقادرٍ على مواصلة المشوار.. ولم تعد بقادرٍ حتى على حمل القلم؟! فها أنت تراني ماثلاً أمامك.. وأنا ما زلت أحمل بندقيتي.. أحمل مدفعي.. ولم يصبني الملل.. ولم يصبني الكلل.. ولم يصبني التعب والوهن..

حقاً.. بأن الصدأ قد قارب أن يصيب بندقيتي.. أن يصيب مدفعي.. وقد كادت أن تصبح بندقيتي كومة من الحديد الصدئ..

لا لشيء إلا لأنها لم تعد تتزود برصاص كلماتك وحروفك.. فبندقيتي ما زالت تحتاج لحروفك.. لكلماتك.. لقلمك.. كي تستأنف العمل.. ولكي تكمل المشوار الطويل..

فهيا انهض أيها العجوز من رقدتك هذه.. وكفاك كسلاً وتكاسلاً يا هذا.. وهيا قم بتعبئة قلمك برصاص بندقيتي.. لكي تبدأ الكتابة من جديد.. لكي تبدأ تعبئة بندقيتي بالرصاص من جديد.. ولكي نستأنف معا المعركة من جديد.. فـ«البندقية لي.. والقلم لك»..

الفهرس

- مقدمة: 7
- البداية.. أم النهاية؟ 9
- الكرامة 21
- جميلة 29
- الكرامة.. المعركة 37
- فلسطين 51
- رجولة 57
- المأزق 61
- القرار 71
- الوصول لجنوب لبنان 79
- هنا بيروت 87
- أول الاشتباكات.. طلقة 97
- لبنان.. والحرب 103
- حسن الأخرس 113

- حصار بيروت 119
- وداعاً بيروت 129
- وداعاً بيروت.. مرحباً تونس 137
- صبرا.. وشاتيلا 143
- عودة ميمونة 155
- عودة ميمونة 161
- لقاء.. ووداع 179
- الرسالة 185
- النهاية.. أم البداية؟ 191